بقعة دم

رواية

د. هند المنياوي

بقعة دم
المؤلفة : د.هند المنياوي

تصميم الغلاف : أحمد بلال

الطبعة الأولي : يناير 2017
رقم الإيداع : 27899 / 2016
الترقيم الدولي : 978-977-769-167-3

جميع حقوق الطبع محفوظه
الناشر: أوراق للنشر والتوزيع
awraaq@live.com
القاهرة – 2 شارع شريف
– الدور الخامس – مكتب 57
م : 01010490247
ت : (02)23963002

إهداء :

إلي أغلي وأقرب القلوب لقلبي

فلذات كبدي

(إيمي وماهي)

أهدي هذا العمل ليكون لهما دافعاً للحياة وذكرى من بعد مماتي لأن في الذكري خلود وفي الخلود وجود

متمنيه من الله عز وجل أن تكون حياتهن أفضل من حياتنا. وجيلهن أفضل من أجيالنا

هند المنياوي

الفصل الأول

كانت الساعة تدق لتعلن الثانية عشرة بعد منتصف الليل، داخل إحدى المستشفيات الحكومية التابعة لأحد مراكز الصعيد، هنا أمام غرفة الولادة توجد حالة غير طبيعية، سعيد عامل المشرحة بالمستشفى، ذلك الرجل ذو الأخلاق الرفيعة، الذي يقترب من نهاية عقده الرابع، يقف أمام الغرفة ويبدو عليه القلق ويتحرك في المكان وهو يتمتم بالكلمات ويناجي ربه أن تسير الأمور بالداخل على خير، أما على أحد الكراسي فنشاهد أم سناء، حماة سعيد، السيدة المسنة ذات الملابس الصعيدية المتعارف عليها، تجلس وتراقب حركة سعيد في حالة من اللامبالاة، وكأن من بداخل غرفة العمليات ليست ابنتها، وكأن الأمر بالنسبة لها ليس بجلل، لدرجة أنها أوقفت سعيد متسائلة:

– ما لك يا سعيد في إيه؟ إنت قلقان كده وكأنها أول مرة تولد؟!

– معلش يا حماتي، إنتي عارفة الأوقات دي صعبة، وبعدين سناء صحتها ما تستحملش.

– يا خويا دانتوا بتدلعوا، مش لو كانت بتولد في البيت على إيد خالتك باتعة مش كان زمانها ولدت من ساعة فاتت؟

– باتعة إيه بس يا حماتي، إنتي ناسية إن بنتك تعبانة وصحتها ما تتحملش ألم الولادة.

– مين اللي قالك كده؟ أمال العيلين اللي هي مخلفاهم دول كان حد جه نتعهم غيرها ولا إيه؟!

كانت كلمات الحماة تنم عن جهل وعدم إدراك، ربما يعود ذلك إلى تمسكها بعادتها القديمة، هذا بالإضافة إلى عدم تعلمها القراءة والمعرفة، لم تكن تعي معنى كلمات زوج ابنتها، لقد كان سعيد يقصد بتلك الكلمات (صحتها ما تتحملش) أن ابنتها مريضة، نعم كانت سناء مريضة بالقلب، وذلك هو سر قلق زوجها، كان يخشى على حياتها، ومن أجل ذلك جاء بها إلى المستشفى لكي يكسر حاجز العادات والتقاليد المتعارف عليها، والتي تتحدث عنها أم سناء، كانت كل دقيقة تمر على سعيد بداخل المستشفى كالدهر.

أما على الجانب الآخر، بداخل منزله، كانت هناك حالة من الترقب الشديد بين أفراد العائلة، فهناك إسماعيل الذي يبلغ من العمر عشرة أعوام، وهناك أيضاً إدريس الأخ الأصغر الذي لم يتجاوز السادسة بعد، وبداخل جدران منزل سعيد البسيط المكون من ثلاث غرف وصالة وحمام ومطبخ، تجلس محاسن، أخت سناء الصغيرة، ومعها طفلتها الرضيعة أشجان التي لم تبلغ عامها الأول بعد، وإضافة إلى ذلك يوجد بعض

النساء من أهل القرية الصغيرة التابعة لذلك المركز الموجود به المستشفى الذي تضع فيها سناء مولودتها الثالثة، وربما تكون الأخيرة نظراً لظروفها الصحية، الجميع في القرية ينتظر الخبر، الوقت يمر، الساعة تدق الثانية من صباح اليوم الجديد، النوم غلب إدريس فاستسلم له دون أن يصله الخبر الذي ينتظره، أما إسماعيل فما زال يقاوم، ما زال ينتظر خبراً سعيداً ينهي به يومه الطويل، وكذلك الأمر بالنسبة إلى محاسن التي تنتظر أن تطمئن على صحة أختها ومولودتها، فهي تعي تماماً قدر الآلام التي تعانيها أختها الكبيرة، خصوصاً مع إدراكها لمرضها على عكس الأم تماماً.

بداخل المستشفى عقارب الساعة تشير إلى الثالثة إلا ربع صباحاً، ولا زال الأمر كما هو عليه، القلق يزداد على وجه سعيد مع كل ثانية تمر عليه وزوجته بداخل تلك الغرفة، أما الحماة فلم تزعج نفسها ولم تترك نفسها إلى القلق لكي يتملك منها، فقد استسلمت إلى النوم، وبكل قوة، كانت تأخذ أنفاسها شهيقاً وزفيراً لدرجة لفتت بها انتباه كل من بداخل الطابق من طاقم التمريض.

الفضول والقلق يكاد يقتل سعيد، تقدم بخطواته نحو باب الغرفة لعله يشاهد ما يدور بداخلها، وقبل أن يلقي بنظره إلى الداخل كان الباب يفتح وتخرج منه الطبيبة التي أجرت لزوجته عملية الولادة القيصرية، استقبلها سعيد بلهفة شديدة متسائلاً :

- ها يا ست الدكتورة.. طمنيني.

- اطمن يا عم سعيد، جابت بنت زي القمر.

– وهي، صحتها عامله إيه؟

– الحمد الله بخير.

– الحمد لله، ألف حمد وشكر ليك يا رب.

أثناء ذلك تنتبه الطبيبة إلى صوت شهيق وزفير الحماة وتنظر إلى سعيد متسائلة:

– مين دي؟

– حماتي.

– آه، ربنا يكون في عونك، هي لسة عايشة.

تبتسم الطبيبة وتربت على كتفه لكي توضح له أنها تداعبه وتحاول أن تحد من حالة التوتر التي كان يعيشها، وتتوجه نحو أم سناء وتربت على كتفها لكي توقظها.

– قومي يا حاجة بنتك قامت بالسلامة.

تنظر لها مندهشة، وتحاول أن تدرك الموقف، تتركها الطبيبة وتذهب بينما في تلك اللحظات تخرج سناء من غرفة العمليات محمولة على الترولي ويبدو عليها أثر التخدير، وخلفها تخرج إحدى الممرضات وهي تحمل بين يديها المولودة، هنا يصاب سعيد بحالة من الارتباك والحيرة، إلى أين تكون قبلته، هل يذهب خلف زوجته لكي يطمئن على صحتها، أم يذهب خلف مولودتها لكي يراها ويملي عينيه منها، أمر محير للغاية، لكن الحماة ساعدت في حسمه وتحديد وجهة سعيد.

لقد اختارت الحماة أن تتبع ابنتها، استقبلتها على الترولي بدهشة وهي

تتمتم ببعض الكلمات غير الواضحة وغير المفهومة بالمرة، وصاحبتها إلى داخل الغرفة التي من المفترض أن تمكث بداخلها حتى تسترد وعيها من أثر التخدير، أما سعيد فتوجه إلى الحضانة خلف مولودته الجديدة، وما إن وضعتها الممرضة على سريرها إلا وحملها سعيد وأخذ يقبلها وهو يتحدث إليها:

– بسم الله ما شاء الله، الله أكبر، يا بنت الإيه يا قمر، كل ده علشان حضرتك تشرفي وتنوري حياتنا، دانا كنت هاموت من الانتظار، أكيد تعبتي أمك، بس ولا يهمك، حمد الله على سلامتك إنتي وأمك يا أجمل ما أنجبت أمك.

كانت الممرضة تقف أمام سعيد في تلك اللحظة وتتابع الحوار بينه وبين مولودته الجديدة بسعادة وسرور، لكنها وجب عليها التدخل، يجب أن توضع الطفلة في مكانها الآن، والآن دون تأخير أو إهدار للوقت حفاظاً على حياتها.

– إيه يا عم سعيد، يعني هي فاهمة اللي إنت بتقوله ده.

– وجعت قلبي وقلب أمها بنت الإيه دي، بس زي القمر وتستاهل.

– طيب هات بقى وروح اطَّمن على أمها.

يعطيها الطفلة ويطمئن على وضعها بداخل الحضانة ويتركها ويذهب مسرعاً نحو تلك الغرفة التي تمكث بداخلها زوجته سناء، أثناء ذهابه إليها يدق هاتفه المحمول، إنها محاسن التي تمكث في منزله منذ حوالي خمس ساعات مضت وتحاول الاطمئنان على أختها الكبرى، الجميع

داخل المنزل استسلم إلى النوم، وكذلك أهل القرية، جميعهم عادوا إلى منازلهم، لكن محاسن ما زالت مستيقظة وتتحدث إلى زوج أختها الكبرى عبر الهاتف:

– آلوه، أيوه يا أبو إسماعيل، طمني، جابت بنت، طيب الحمد لله، وهي، صحتها عاملة إيه، يعني لسة خارجة من أوضه العمليات؟! ربنا يقومها بالسلامة، والنبي يا أبو إسماعيل أمانة عليك، أول لما تفوق من البنج تديها لي أكلمها، مع السلامة يا أخويا وألف مبروك، مع السلامة.

تغلق الهاتف ولا تستطيع أن تتمالك نفسها من فرط السعادة، راحت تغرد بكل ما بها من قوة، لدرجة أفزعت طفلتها الصغيرة، أشجان، النائمة على قدميها، هنا أدركت أنها تتصرف بشكل لا تراعي فيه الزمان.

أما بداخل الغرفة التي وضعت بها سناء كانت الأم في حالة يرثى لها، فمنذ أن دخلت ابنتها تلك الغرفة، ووضعوها على هذا السرير، وهي لم تتحرك أو تبدي شيئاً يدل على أنها مازالت على قيد الحياة، اللهم إلا أنها تتنفس فقط، كانت محاولات الأم الاطمئنان على ابنتها من حين إلى آخر غريبة للغاية، لدرجة أن هاجسها أوحى لها أن ابنتها فارقت الحياة، ولولا دخول سعيد في الوقت المناسب لكانت الأم قد أعلنت ذلك في كل أرجاء المستشفى، لكن سعيد أوضح لها أن ذلك كله يعود إلى تأثير التخدير الذي خضعت له سناء من أجل عملية الولادة القيصرية، بالطبع كان يراعي كبر سنها وعدم علمها بتلك الأمور، خصوصاً أنها سيدة تنتمي بكل جوارحها وتفكيرها إلى أصولها الصعيدية التي تعتز وتفتخر بها

دائماً، فالعادات والتقاليد عند هؤلاء المسنين تبدو كشيء مقدس لا يمكن التخلي عنه مهما كانت الظروف، ومن يخالف تلك العادات والتقاليد يستوجب إقامة الحد عليه، فتلك الفئة العمرية لا تهتم بأمر الطب، ربما تكون أم سناء من أواخر الأشخاص الذين يفكرون بهذا المنطق.

ولأن سعيد يعلم منطقها وتفكيرها جيداً استطاع أن يوضح لها ما فشل فيه طاقم التمريض، وشرح لها أدق التفاصيل التي تعيشها سناء، لم تهتم الأم بأمر مرض ابنتها كثيراً، إنه حسب وصفها قضاء الله وقدره، وربما يكون ابتلاءً من المولى - عز وجل - جلست أم سناء على أحد الكراسي في انتظار أن تعود سناء مرة أخرى إلى الحياة وتسترد وعيها حسب ما أخبرها به سعيد، لم يمر الكثير من الوقت إلا وبدأت سناء في استرداد وعيها، كانت أم سناء في تلك الفترة قد فقدت الوعي وغلبها النعاس واستسلمت تماماً له، وما إن فتحت سناء عينيها إلا ووجدت بجوارها رفيق دربها وحياتها، يمسك بيدها ويبتسم في وجهها بكل رضا قائلاً :

- حمد الله على سلامتك.

- الله يسلمك، جبت إيه.

- بنت زي القمر، شبهك بالضبط.

- طيب هي فين؟ عايزة أشوفها.

في تلك اللحظات تدخل الطبيبة المختصة بحالة سناء لكي تطمئن على حالتها وتشاركهم الأفراح.

- إيه الأخبار يا عم سعيد، أم إسماعيل فاقت أهي وبقت زي الفل، حمد

الله على سلامتك.

– الله يسلمك يا ست الدكتورة.

– أنا مش عارف أشكرك إزاي يا ست الدكتورة.

– على إيه يا عم سعيد، داحنا إخواتك الصغيرين.

– هو أنا ينفع أشوف بنتي يا ست الدكتورة.

– آه طبعاً.

ثم تشير إلى الممرضة التي تتبعها وتأمرها بأن تأتي بالمولودة لكي تقوم سناء بإرضاعها، وأخبرت سناء أنها باستطاعتها أن تغادر المستشفى في الصباح على أن تأتي بعد أسبوع لكي تفك السلك، وقبل أن تغادر الغرفة تلاحظ أن أم سناء ما زالت نائمة فتنظر إلى سعيد مداعبة:

– هي الحاجة جاية تنام هنا يا عم سعيد؟!

لم يجدوا رداً أبلغ من الضحكات، غادرت الطبيبة الغرفة وجاءت الممرضة بالمولودة واحتضنتها سناء بسعادة بالغة، عندها استيقظت أم سناء لكي تشاركهم الأفراح.

– بسم الله ما شاء الله، زي القمر.

– مش قولت لك شبهك.

– لا، دي شبهي أنا.

– مش قوي كده يا حماتي.

– قصدك إني وحشة ولا إيه يا سعيد؟!

– أنا أقدر يا حماتي.

- المهم .. هنسميها إيه؟
- نسميها على اسمي، نحمده.
- إحنا طبعاً نحمده يا حماتي، بس برضه عايزين اسم تاني، الدنيا بتتغير.
- كده يا سعيد، مااااشي.
- بصراحة يا أمه .. سعيد عنده حق.
- خلاص، إحنا هنسميها أفراح.
- الله .. اسم حلو أوي يا سعيد.

هكذا تم اختيار اسم المولودة، أفراح، لعلها تكون مصدر أفراح تلك الأسرة البسيطة التي لا تملك في حياتها إلا السعادة والرضا، تبادلوا بداخل الغرفة بعض الكلمات والضحكات، كانت آلام الولادة التي عانتها سناء قوية ولها أثر بالغ على صحتها، لم تستطع أن تستمر كثيراً وذهبت لكي تلقي بجسدها على السرير لكي تستريح، لكنها احتضنت بين ذراعيها أفراح، السبب الوحيد الذي وصل بها إلى ما هي فيه، كانت تعلم منذ ساعات قليلة مضت أنها بين الحياة والموت، لأنها تعلم حقيقة مرضها، كانت كل ما تفكر فيه هو باقي أفراد أسرتها، أبناؤها الصغار، كانت تحمل هم ما في بطنها قبل أن تضعه وتطرح التساؤلات، ترى .. لو فارقت الحياة ماذا سيكون مصير ما في بطني؟ هل سيخرج إلى الحياة من دوني أم سيذهب معي دون أن يرى الحياة؟ كانت تساؤلات كثيرة وأفكار تدور في رأس سناء قبل أن تدخل غرفة العمليات تحسباً منها ألا تخرج مرة أخرى وهي على قيد الحياة، تذكرت كل تلك الأفكار وهي

تحتضن مولودتها بين ذراعيها بشدة وتضمها إلى ثديها كي ترضعها كلما صرخت أو بكت، أما سعيد الذي جلس على أحد الكراسي بجوار حماته التي عادت لتمارس هوايتها المفضلة، استسلم أيضاً إلى النوم الذي لم يذق طعمه منذ يومين، كانت تدور برأسه أفكار كثيرة، يخشى ما كانت تخشاه زوجته، لكن في النهاية، كان الرحمن به وبزوجته وبأسرته البسيطة رحيمًا، بل كان كريماً، نعم لقد كان سعيد يتمنى من الله أن تضع زوجته أنثى، وها هو الله يحقق له ما تمنى.

بعد ساعات قليلة بداخل القرية التي يقع فيها منزل سعيد رفع آذان الفجر، خرج الأهالي للصلاة كعادتهم وما إن انتهوا من صلاتهم إلا وتساءلوا عن سعيد ولماذا لم يحضر ويرفع الآذان ويقيم الصلاة كعادته، لم يكن معظم أهل القرية يعلمون بتلك الحالة الاستثنائية التي يمر بها سعيد اليوم، لكنهم الآن أصبحوا يعلمون بعد أن أجاب أحد جيرانه على السؤال وأخبرهم أن زوجته تضع مولودتها في مستشفى المركز، وقرر كل أهالي القرية كل منهم بمفرده أن ينتظر قليلاً بعد عودته إلى منزله ثم يقوم بالاتصال الهاتفي بسعيد حتى يطمئن عليه وعلى صحة زوجته.

على الجانب الآخر بداخل منزل سعيد استيقظت محاسن على صوت بكاء طفلتها أشجان التي ترغب في الرضاعة، وما إن انتهت من إرضاع صغيرتها إلا وتواصلت مع زوج أختها عبر الهاتف المحمول لكي تطمئن على حالتها، خصوصاً بعدما استيقظ إدريس وتساءل عن أمه وأبيه، كانت المكالمة مختصرة للغاية، اطمأنت محاسن من سعيد على صحة سناء

وصحة المولودة وعلمت باسمها وموعد عودتهم إلى المنزل.

على الجانب الآخر بداخل المستشفى انهالت الاتصالات على سعيد من أهل القرية، الجميع يتواصل معه ويطمئن على حال زوجته ويبارك له مولودته الجديدة، لدرجة أن بطارية الهاتف فرغت من الشحن، كانت الساعة الثامنة صباحاً في ذلك التوقيت، جاء مدير المستشفى بنفسه إلى تلك الغرفة التي بداخلها سعيد وزوجته، اطمأن على حالة سناء وأفراح وبارك لسعيد على مولودته الجديدة وأعطاه راحة من العمل اليوم، وقررت الطبيبة المختصة خروج سناء من المستشفى بعد أن اطمأنت على حالتها وعلى صحة أفراح، لم يضع سعيد وقتاً، قام باستئجار سيارة لكي تنقله إلى منزله، وأخذ سناء وأفراح وأم سناء وغادروا المستشفى بعد انتهاء الإجراءات الرسمية التي تسمح لهم بالمغادرة.

وصلت السيارة إلى القرية وتوقفت أمام منزل سعيد في تمام العاشرة صباحاً، كان الكثير من نساء القرية في انتظارهم، الجميع يجلس أمام منزل سعيد في انتظار عودة سناء من المستشفى لكي يباركوا لها على مولودتها ويطمئنوا على صحتها، وسط زحام شديد من النساء دخلت سناء وهي تحمل بين يديها أفراح إلى منزلها، كان إسماعيل وإدريس ومحاسن في أول المقابلين لها واصطحبوها إلى الداخل، أما سعيد فقد وقف يحاسب سائق السيارة .

كانت أصوات الزغاريد والأفراح ترج أركان المنزل والقرية بأكملها، السعادة ترتسم على وجوه الجميع، الكل يقدم التهنئة إلى سعيد الذي

جلس أمام المنزل يودع كل من يخرج من الداخل ويستقبل كل من يأتي إلى زوجته، جلس إسماعيل بجواره يتأمل وجهه الذي يبدو عليه الإرهاق الشديد، سأل عن اسم أخته الصغيرة وأخبره الأب بأنه اختار لها اسم أفراح، وطلب منه أن يهتم بها ويكيل لها كل الرعاية والاهتمام عندما يكبر ويصير رجلاً، كان الأب يداعبه بتلك الكلمات لكن إسماعيل أخذ الكلمات على عاتقه واستشعر أنها أوامر من والده إليه بأن يتحمل المسئولية منذ البداية، وأدرك أنه أكبر اخوته وعليه أن يصير رجلاً بلأقصي سرعة حتى يصبح على قدر المسئولية التي حمَّلها له والده.

انتهت النساء من تقديم التهاني إلى سناء، وانتهت محاسن من طهي الطعام الخاص بها، فهناك وجبة خاصة يجب أن تتناولها، قامت محاسن بذبح عدد من الفراخ البلدي التي كانت سناء تقوم بتربيتها داخل المنزل من أجل تلك المناسبة، تناولت سناء طعامها وكذلك تناول الجميع وجبة الفطور على غير العادة قرابة آذان الظهر، انتهوا من تناول الطعام وخلدت سناء إلى نومها بعد أن قامت بإرضاع أفراح، وتوجَّه سعيد إلى مسجد القرية وأخذ معه إسماعيل الذي تعود على أن يحافظ على الصلاة بجوار والده، أما إدريس فذهب ليلعب مع باقي الأطفال أمام المنزل، بعد أن انتهى سعيد من صلاته داخل المسجد بدأ في استقبال التهاني من كل أهالي القرية الذين علموا بخبر مولودته، غادر الجميع المنزل وبقي سعيد، أراد أن يتوجه إلى الله بالشكر عن طريق الصلاة، جلس إسماعيل بجوار والده الذي لم يفرغ من صلاته بعد، كان يراقبه وهو لا يعلم أي نوع من الصلاة

هذه التي يقوم بها الأب الآن، وما إن انتهى إلا وسأله إسماعيل عما يدور برأسه:

- أبه، هو الظهر مش أربع ركعات وركعتين سُنة قبل وبعد؟

- أيوه يا إسماعيل.

- طيب هو إنت كنت بتصلي إيه تاني؟

- أنا كنت بصلي ركعتين شكر لربنا علشان رزقني بأختك أفراح وقوم لي أمك بالسلامة.

لم يع إسماعيل كلمات والده، لكنه أدرك أنه يجب على الإنسان التقرب إلى الله والشكر له من خلال الصلاة، وأدرك أيضاً أن التقرب إلى الله من خلال الصلاة في المحن والسراء والضراء يجعل العبد قريباً من الله دائماً ويسمع له الدعاء ويستجيب، وأخبره والده بالحديث النبوي الشريف الذي يقول: «أقرب ما يكون العبد إلى ربه وهو ساجد، فأكثروا من الدعاء في السجود».

تعلم إسماعيل من والده كيف يتقرب إلى الله وكيف يكون الدعاء مستجابًا، عادوا إلى المنزل، إنها ساعة القيلولة، تملك التعب والإرهاق من سعيد فتوجه إلى أحد الغرف لكي يحصل على قسط من الراحة، لقد مر بوقت مرهق ومتعب للغاية وجاء الوقت لكي يستريح.

جاء الليل، ما زال منزل سعيد هو قبلة كل أهل القرية من النساء، الجميع يأتي إليهم محملاً، إنها عادة من العادات المتعارف عليها (العشاء) من أجل السيدة التي وضعت حتى تعوض ما فقدته من طاقة ودماء

أثناء عملية الولادة و(النقوط) وهو مبلغ مالي يدفعه المهنئ إلى السيدة على اسم المولودة لكي يعين الأسرة على النفقات في تلك الفترة ويكون بمثابة مشاركة ومساهمة من المهنئ في المصاريف التي أنفقت أثناء عملية الولادة، تلك هي العادة التي تتبع في مثل تلك الحالات السعيدة التي تحل على إحدى الأسر بداخل قرية صعيدية أو ريفية، إنها العادات والتقاليد التي تمثل الحب والمودة والتآلف، تحمل معانٍ كثيرة جميلة تجمع الكل في وقت واحد وحدث واحد، إنها الحالة المفقودة الآن في مجتمعنا المعاصر.

انتهت مراسم التهنئة في اليوم الأول، خلد الجميع إلى النوم بداخل المنزل، وعلى غير العادة استيقظت أفراح دون أن تحدث ضجيجاً أو عويلاً، وكأن ابنة اليوم الواحد أدركت كم التعب والإرهاق الذي تعيشه بقية الأسرة ورفضت أن تحملهم أكثر من ذلك، خصوصاً أمها التي تعاني آلاماً كبيرة من جراء الولادة، كانت ساكنة وكأن الملائكة هي التي تحملها، تعبث وتحرك أطرافها وكأنها تأخذ الدرس الأول لها في كيفية التعامل مع الحياة، مشهد بديع لم يره أحد غير إسماعيل الذي كان نائماً بجوار فراش أمه على الأرض واستشعر صوت أنفاس أخته الصغيرة، نظر إليها وشرد خياله وهو يحاول أن يداعبها، لكنه لم يكن على القدر الكافي من الخبرة في التعامل مع أخته وهي في تلك المرحلة العمرية، بكت أفراح فأيقظت أمها التي ما إن سمعت صوت بكائها إلا وقامت مسرعة لكي تأخذها بين ذراعيها وتقوم بإرضاعها، أخبرها إسماعيل أثناء ذلك أنها كانت مستيقظة وتحرك أطرافها وأنه أراد أن يلعب معها لكنها بكت،

ابتسمت سناء وهي تخبره أنها ما زالت صغيرة جداً على ما يريده منها، استسلم إسماعيل للأمر الواقع وخلد إلى نومه.

في الساعات الأولي من صباح اليوم الثاني نظر إلى أفراح وعلى وجهه ابتسامة تسع الكرة الأرضية، بعد أن تناول سعيد إفطاره بداخل جدران منزله ارتدى ملابسه وخرج إلى عمله، قبل أن يغادر المكان استوقفه إدريس طالباً منه المصروف نظر له الأب مبتسماً وهو يخرج له مصروفه ويعطيه له مداعباً:

– هو إنت يا واد يا إدريس ما بتعرفش حاجة في حياتك غير المصروف واللعب.

– أُمَّال عايزني أعمل أيه يا أبا، مش أنا لسة صغير؟

– صغير إيه يا واد دانت كلها سنتين وتبقي طولي.

– لأ صغير.. ولا إنت عايزني أكبر علشان تدلع النونة وتسبني وما تجبليش حاجة حلوة زي الأول.

أدرك سعيد أنه أمام مشكلة كبيرة بينه وبين ابنه الصغير، فالكلمات التي خرجت من فمه والتي لا يعي معناها كانت كالسهم الذي اخترق قلب الأب، كيف له يظن أن يأتي يوم ويفرق بينه وبين أخوته وخصوصاً أخته الصغيرة، ثم إن تلك الكلمات لا تخرج من فم صبية صغار، نعم، لا تخرج تلك إلا من فم شخص يعي ويدرك معنى الكلمة، وكانت المفاجأة عندما أخبر إدريس والده أن جدته هي التي أخبرته بتلك الكلمات، يا لها من سيدة عجوز حقاً! دائماً عفويتها تؤدي إلى مشاكل متفاقمة، حاول سعيد

أن ينفي ما بثته الجدة من أخبار في عقل الصغير ويمحو آثارها بداخله، ثم توجه إلى عمله بعد أن داعبه ابنه.

بداخل المستشفى التي يعمل بها سعيد كان هناك الكثيرون من أصدقائه في العمل ينتظرونه لكي يبادلوه التهنئة بمولودته الجديدة، ويقوموا معه بالواجب حسب وصفهم، ويقدموا إليه نقوط المولودة كما هو متعارف عليه من عادات وتقاليد، وبعد قليل جاء ما يفرق هذا الجمع وينهي حالة السمر فيما بينهم ليعلن حالة الطوارئ داخل المستشفى، صوت سيارات الإسعاف يعلو في كل أرجاء المستشفى، إنه حادث تصادم على الطريق السريع، نتج عنه وفاة أربعة أشخاص، وإصابة الكثير، الجميع ذهب إلى عمله، سعيد بدأ في استقبال جثث الموتى لحين حضور رجال النيابة والتصريح بالدفن وإنهاء كافة الإجراءات المتبعة في تلك الحالات، كان اليوم مرهقاً بداخل المستشفى بأكملها، كثير من الأهالي يتوافدون على المشرحة يستقبلهم سعيد بصدر رحب ويحاول أن يخفف عنهم معاناتهم ويشاركهم مصابهم في ذويهم، للحقيقة تلك المهنة تحتاج إلى رجل ذي مواصفات خاصة، لديه من الإيمان بالله والقضاء والقدر ما يكفي لتحمل تلك المواقف الصعبة للغاية، وكان سعيد واحداً ممن يتمتعون بتلك المواصفات لدرجة أنه ذات مرة سأله أحد أصدقائه عن عمله وعن المتاعب والمواقف التي يمر بها أثناء عمله داخل المشرحة، فأجابه سعيد بكل حكمه قائلاً:

- الموت قادم لا محالة، فمن منا يخشى لقاءه كأنما يخشى لقاء خالقه،

والعياذ بالله، أما أنا، فإني أرى في الموت حكمة وعظة، أقف أمام الموتى وأدقق النظر إليهم وإلى ما أصابهم وأودى بحياتهم حتى أقول سبحان الله، اللهم أمتني وكل من تحب على الفراش بين الأهل والأحباب دون أن يمسنا عذاب الجسد قبل الوداع.

هكذا كان حال سعيد، ينظر ويتأمل لكي يدعو ويرجو الله، لا يخشى لقاء خالقه بل إنه يتأهب ويستعد بروح راضية.

بداخل المنزل الذي ما زال يستقبل الأهل والأقارب، كانت سناء تجلس فوق فراشها وتحمل أفراح بين يديها وتتناقلها منها محاسن من حين إلى الآخر وكذلك أم سناء وإسماعيل وإدريس، إلى أن عاد سعيد من عمله وتناولوا العشاء وتوجهوا إلى النوم مبكراً كعادتهم وعادة أهل القرية حتى يستيقظوا مبكراً ويتوجهوا إلى أعمالهم، كان من عادات سعيد أن يستيقظ قبل آذان الفجر بنصف ساعة تقريباً حتى يتأهب لرفع الآذان في مسجد القرية، ثم يعود إلى منزله يجلس بعض الشيء مع زوجته وأبنائه ويتناولون الطعام ثم يتوجه إلى عمله، هكذا كانت تسير الحياة بداخل هذا المنزل بين أفراد أسرته البسيطة.

مرَّت ستة أيام على ميلاد أفراح، غداً سيكون اليوم السابع، إنه السبوع، يوم يحتاج الكثير من الجهد والإنفاق، طقوس خاصة للغاية، لقد أتى منذ الصباح أقرب نساء القرية من قلب سناء لكي يساعدوا أختها محاسن في متطلبات اليوم، يطهين الأرز باللبن ويصنعن الفيشار والحلو ويقمن بتوزيعها على أهل القرية، الأطفال يتصارعون لكي يساعدوا في عملية

التوزيع، الجميع يحتفل بسبوع أفراح، وفي المساء جاءت أخوات سعيد من القرى المجاورة وأقاربه وأقارب سناء أيضاً، إنه حسب قولهم وطقوسهم (ليلة لأهل الله) على شرف ميلاد أفراح، يتم فيها ذبح العقيقة وطهي الأرز بالفتة ويجتمع أهل القرية والأقارب والأحباب ويتناولون الطعام سوياً، إنها حالة مبهرة من التآخي والالتحام والتقارب بين أفراد أهل القرية والأقارب والأهل والأحباب، الجميع يتكالب لخدمة الجميع وتوفير كل سبل الراحة وإكرام الضيف، كان إسماعيل يقف بجوار والده أينما كان لكي يوفر له كل ما يطلبه من أجل الضيوف.

انتهى اليوم بحالة من الحب والود، غادر من أتى لكي يقدم التهاني من القرى المجاورة من أهل سعيد وسناء وأصدقائه في العمل، عاد أهالي القرية إلى منازلهم، خلد إدريس وإسماعيل إلى النوم، عادت أم سناء ومحاسن إلى منازلهما، انتهى الاحتفال وغادر الجميع وبقي فقط سناء وزوجها سعيد على الفراش وبينهما كانت أفراح.

الفصل الثاني

انتهى حفل سبوع أفراح سريعاً، كان يوماً شاقاً على تلك الأسرة البسيطة، تكبد سعيد الكثير من الأموال لكي يستطيع أن يظهر بالمظهر اللائق به أمام كل المدعوين لحضور حفل السبوع، كان ذلك الأمر محيراً للغاية بالنسبة إلى سناء، من أين أتى بتلك الأموال التي أنفقها بالأمس، إنها تعلم (البير وغطاه) كما يقول المثل الشعبي الدارج، لكن لم يسعفها الوقت أن تسأل أو تطرح ذلك السؤال عليه بالأمس نظراً لشعورها بكم الإرهاق والتعب الذي أصابه من جراء خدمته للموجودين حسب ما تجري العادات والتقاليد في تلك المناسبات السعيدة، وأيضاً لم يسعفها الوقت أن تسأل ذلك السؤال في الصباح، فبعد أن أدى سعيد صلاة الفجر في المسجد وعاد إلى منزله تناول وجبه إفطاره وذهب سريعاً إلى عمله، وما كان أمامها إلا أن تنتظر عودته آخر النهار لكي تسأله، وبالفعل بعد أن عاد من عمله وتناول طعامه مع باقي أفراد أسرته الصغيرة اختلت به وسألته عما يدور في رأسها منذ الأمس:

- سعيد! كنت عايزة أسالك سؤال كده يا اخويا.
- خير يا سناء، في إيه؟
- هي الليلة بتاعت امبارح دي كلفتك كتير؟
- الحمد لله، اتقضّت على خير.
- الحمد لله، بس يا اخويا لا مؤاخذة يعني، إنت جبت كل الفلوس دي منين؟
- طيب ما تقولي كده من الأول، ما إنتي عارفاني، مش بحب اللف والدوران.
- معليش يا أخويا، ها قول لي بقى.
- بصي يا ستي.

وراح يخبرها كيف وفر نفقات ذلك اليوم الذي يحضر له منذ ما يقرب من ثلاثة أشهر سبقت هذا الحدث، أخبرها إنه ادخر جزءًا من راتبه مع أصدقائه بداخل المستشفى في شكل جمعية، هذا بالإضافة إلى تلك الأموال التي جمعها كـ(نقوط) أفراح منذ يوم ميلادها، هذا بالإضافة إلى أن تلك المولودة (وش رزق) كما يقال في الأمثال الشعبية.

اطمأنت سناء من زوجها على نفقات هذا اليوم الحافل، كان كل ما يشغلها ألا يكون زوجها قد تداين من أجل أن يقيم هذا الاحتفال، وهي تعلم جيداً أن الظروف التي يعيشونها لا تتحمل الدين، كانت تفكر في الغد والمسئولية التي أصبحت أكبر من الأمس، لقد زاد عدد أبنائهم إلى ثلاثة، كل منهم يحتاج إلى متطلبات يجب أن تتوفر، كان الأب والأم

يحملان هماً كبيراً، لكن كل حسب تفكيره ووجهة نظره.

مرت الأيام، السعادة تملأ المنزل البسيط منذ أن جاءت أفراح، أهل القرية جميعاً يتناوبون على حملها طوال اليوم، استطاعت تلك الطفلة أن تمتلك قلوب الكثيرين من جيرانها، كما قال عنها والدها، وش رزق، ففي أول شهر لها على وجه الدنيا زاد راتب والدها وارتفعت نسبة الحوافز له في العمل، لم تقابل الأسرة منذ ميلاد أفراح أي شيء يعكر صفوها، لكن بعد مرور ثلاثة شهور على ميلادها توفيت جدتها، أم سناء، ربما ذلك الخبر السيئ كان محتملاً وقوعه منذ فترة، لكنه قضاء الله، أصاب الحزن أهل المنزل جميعاً، كانت سناء أشد حزناً على وفاة أمها، اكتسى المنزل باللون الأسود حداداً على فراق أم سناء، مكثت أفراح مع أمها في منزل جدتها ثلاثة أيام متواصلة لكي تتقبل العزاء من أهل القرية والأهل والأقارب، ثم عادت إلى منزلها مجدداً لكي تستقبل عزاء أهل قريتها، كانت حالتها النفسية سيئة للغاية، ومن يقوى على فراق أغلى وأحب الأشياء على قلبه (الأم) مهما كانت لا تقوى على فراقها خصوصاً عندما تكونين أنتِ أول مولود لها، تذكرت سناء سنوات عمرها جميعاً منذ أن كانت طفلة إلى أن أصبحت أماً وتجلس وطفلتها على يدها لتأخذ عزاء أمها، أمر يصعب تداركه، محنة لا يتجاوزها أعتى الأقوياء، لكنه في النهاية قدر، من المستحيل أن يفر أو ينجو منه أحد، من هذا المنطلق بدأ سعيد حديثه إلى زوجته ومحبوبته وأم أبنائه ورفيقة عمره لكي يواسيها ويحاول إخراجها من تلك الحالة النفسية السيئة التي أصابتها منذ أن علمت بخبر وفاة أمها

إلى أن مضت الثلاثة أيام في دارها، كان الزوج رحيماً بها، يدرك ما تعيشه من حزن وأوجاع، اختلس من لحظات الحزن الذي تعيشه بعض الوقت وضمها إلى صدره وقال لها برفق:

– اعلمي أننا جميعاً ماضون، لن يبقى إلا لا إله إلا الله محمد رسول الله، اعلمي أننا على تلك الأرض ضيوف، لا حول لنا ولا قوة، كل منا له أجل مسمى، فإذا جاء أجلهم فهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، أعلم قدر حزنك على وفاة أمك الغالية، كما أعلم أيضاً قدر إيمانك بالله وبقضائه وقدره، انفضي حزنك عن قلبك وضعي بدلاً منه خالقك وخالقي وخالق كل شيء حي، هكذا علمتني الأيام، نعم لقد أصابني الحزن كثيراً من فراق الأهل والأحباب، لكنه يوماً لم يتملك من قلبي، لأني وبكل بساطة يا رفيقة دربي أعلم أنني سوف ألحق بهم يوماً ما وأعمل جاهداً من أجل لحاقي بهم في جنة الفردوس الأعلى كما أخبرنا رب العزة، انظري إلى تلك الابتسامة التي على شفاه ابنتي أفراح وهي بين يديك، إن روح تلك الطفلة تعي جيداً كل معاني الكلمات التي أنطق بها الآن إليكِ، وهي فخورة بأني والدها وأنت أمها، انفضي حزنك عنك واعملي من أجل ابنتك لكي تدوم تلك الابتسامة والسعادة.

كانت تلك الكلمات التي أفضت بدموع عين سناء كفيلة لأن تعيدها مجدداً إلى الحياة، نعم، كانت في أشد الحاجة إلى سماع تلك الكلمات التي تغسل عن قلبها حزنها وتعيد له النور بقول لا إله إلا الله.

مرت الأيام والشهور، كبرت أفراح وبلغت عامها الأول، كلما كبرت

يوماً كبر حب الجميع إليها، ما زالت تستحوذ على قلوب كل جيرانها، وتتصارع الأيام معها، تنمو يوماً بعد الآخر وتبقى على القمة إلى أن بلغت عامها الرابع، كانت إحدى الجيران وتدعى وفاء والتي تعمل مدرَّسة في إحدى الحضانات الخاصة، كانت وفاء تعشق أفراح عشق الجنون وتعتبرها ابنتها التي لم تنجبها، ويعود ذلك إلى أنها فقدت زوجها يوم زفافها وأقسمت ألا تتزوج بعده لشدة حبها له، وبرغم ذلك كانت وفاء تتمنى أن تكون أمًا يوماً من الأيام، لذلك كانت أفراح هي مصدر سعادتها الوحيدة في تلك الحياة، أصرت على إلحاقها بتلك الحضانة التي تعمل بها، لم يستطع سعيد أن يمانعها في ذلك الأمر عندما طلبت من سناء أن تعرض عليه الفكرة، كان يشعر باحتياجها إلى أن تعوض إحساسها بعدم الزواج والإنجاب، وكانت أفراح هي ملاذها الوحيد، كان كل ما يخشاه أن تزيد النفقات عليه أكثر مما يجب، لكن وفاء أزاحت تلك الفكرة تماماً عن كاهله، لقد ألحقت أفراح بالحضانة على نفقتها الخاصة وكان ذلك رجاء منها، في بداية الأمر رفض سعيد بشدة وشعر بالإهانة، وطلب من وفاء أن تأخذ منه نفقات الحضانة، لكنها أوضحت مدى شعورها تجاه ابنته، وأخبرته أنها لم تدفع لإدارة الحضانة أي نفقات مقابل إلحاق أفراح بها، وعليه أن يوفر تلك النفقات إلى المرحلة القادمة من التعليم الأساسي، انصاع سعيد في نهاية الأمر إلى رغبتها رغم شعوره بأنها ستدفع هي النفقات، لكن سناء أجزمت أن وفاء لم تدفع أي نفقات مقابل إلحاق أفراح بالحضانة، كما استخدمت سناء كل ما تمتلكه من حنين وحب لها

بداخل قلب زوجها لتضغط عليه من أجل الموافقة على طلب جارتها وصديقتها القريبة جداً لها.

بالفعل التحقت أفراح بالحضانة وتولت وفاء تعليمها القراءة والكتابة، كانت تتعامل معها وكأنها ابنتها التي أنجبتها، لم تبخل عليها بشيء، أصبحت أفراح هي عالم وفاء الجديد الذي تعيش به ومن أجله، وكلما حاول سعيد أن يحد من تلك العلاقة كانت سناء تتدخل وتمنعه بأسلوبها، وكل منهما له أهدافه وأفكاره التي يقتنع بها، سعيد يخشى تلك الحياة التي تتسم بالرفاهية التي تعيشها ابنته في منزل جارته، ويخاف أن يأتي يوم ولا يستطيع أن يوفر طلبات أفراح التي اعتادت أن يتوفر لها كل ما ترغب به، أما سناء فتشعر وكأن وفاء تحمل عنها عبء التربية والتعليم التي يجب أن تتوفر لابنتها وهي لا تستطيع أن تقوم بذلك بسبب جهلها وعدم معرفتها القراءة والكتابة، كان إسماعيل يقف في صف والده ويخشى على أفراح من تلك المعاملة التي تلاقيها أفراح من جيرانها، فهو لم يعتد تلك المعاملة من قبل، لذلك يرفضها ويراها عيباً، أما إدريس فلم يهتم بذلك فهو كل ما يهمه أن يجد ما يشغل فراغه وكانت الألعاب التي تجلبها وفاء إلى أفراح كفيلة بفعل ما يرغب به إدريس.

دارت الأيام ومرت سريعاً، كانت كل المؤشرات تدل على ذكاء أفراح الملفت للنظر، تعلمت سريعاً الكتابة، حفظت أشكال معظم الحروف والأرقام، حصدت الدرجات النهائية في عامها الأول داخل الحضانة، عندما علم سعيد بذلك أدرك قيمة مكوث ابنته مع جارته وفاء، استشعر

الفخر في أول تجربة لابنته الصغيرة التي أصبحت مثلاً يحتذى به بداخل الحضانة التي تتلقَّى فيها العلم، كان نفس الشعور يداعب إسماعيل الذي حصد مجموعاً ليس بمجدٍ في الإعدادية، نعم، صار إسماعيل صبياً يدرك قيمة العمل والاجتهاد، فرح بما حققته أخته الصغيرة التي يكن لها قدراً وافراً من الحب، أما إدريس فقد تجاوز درجات النجاح المطلوبة لكي ينتقل إلى الصف الأخير من مرحلة التعليم الابتدائي، كان يوم النتيجة الدراسية يوماً مشهوداً بداخل المنزل، الاحتفال يصب في صالح أفراح ثم إسماعيل، لاحظ إدريس أنه يحظى بكم من التجاهل داخل الأسرة ربما يكون مبالغًا فيه، أدرك أن أفراح تأخذ كل اهتمام الأب والأم، لكنه في تلك المرة لم يبح بما في داخله من شعور وإحساس، أدرك أنه يأتي دائماً في آخر المطاف، أفراح أولاً ويأتي من بعدها إسماعيل أما هو، ربما لا يذكر في الجلسة إلا بالتعنيف على اللعب المستمر وعدم الاهتمام بدروسه ومذاكرته، ربما يكون ذلك الشعور أساس أزمة مستقبلية، أو يكون مجرد شعور داخل طفل لم يتجاوز العاشرة من عمره وسوف يزول مع الأيام ويدرك معنى اهتمام الجميع بالطفلة الصغيرة، ويعي أن ذلك الاهتمام ما هو إلا نوع من أنواع الحنين ربما لأنها البنت الوحيدة الموجودة داخل تلك الأسرة البسيطة، ومن يعلم، لعله بعد سنوات قليلة يتحمل هو أمر رعايتها ومسئوليتها، باختصار شديد، كل ذلك ما هو إلا شعور طفل قابل للتغير أو التأكيد فيما بعد.

وصلت أفراح سن السادسة، إنه سن الالتحاق بالمدرسة، كانت في

هذه الفترة العمرية القصيرة أصبحت تجيد فن القراءة والكتابة والحساب وأساسيات اللغة الإنجليزية، لم يكن لديها مشكلة في كل ذلك فالأمر أصبح بسيطاً جداً عليها وذلك يعود إلى مساعدة وفاء لها، وإن دق التعبير والوصف يعود ذلك كله لتولي وفاء شأنها، لكن وصلت إلى المرحلة التي يجب أن تتولى أسرتها أمرها، الصف الأول الابتدائي، أدرك سعيد ومن بعده إسماعيل الذي بلغ عامه السادس عشر وأصبح يعي معنى كلمة مسئولية، أدركوا أنهم عليهم الآن الالتزام تجاه أفراح والاهتمام بها ورعايتها في كل شيء، وتكون علاقتها بوفاء هي المرتبة الثانية وليست الأولى، كلها أيام وتبدأ المرحلة الجديدة في عالم أفراح، كانت تسمع عنها وتتمنى أن تبلغ تلك المرحلة سريعاً حتى تعيش ما تسمع عنه من وفاء وتشاهده في فتيات القرية اللاتي تراهن يذهبن إلى المدرسة وهن يرتدين الزي الرسمي والحقيبة، في تلك الفترة جلست أفراح الصغيرة وسط أبيها وأمها تسألهما:

- آبا، هو أنا هاروح المدرسة إمتى؟

- الأسبوع الجاي يا أفراح.

- طيب إنت مش هاتجيبلي لبس المدرسة بقى؟

- حاضر يا ستي.

هنا تتدخل الأم في الحديث:

- أنا مش عارفة إنتي مستعجلة على المدرسة أوي كده ليه؟!

- مش أنا كبرت يا أمَّه، عايزة أروح المدرسة بقى زي العيال.

هنا يتدخل إدريس مداعباً:

- بكرة يا أختي تروحي لحد ما تزهقي منها وتكرهي اليوم اللي شوفتي فيه المدرسة.

- ليه؟ هي زيك؟ دي طالعة لأبوها بتحب كل حاجة بتعملها، وبتحب تتعلم كل حاجة.

دار بينهم الحوار بين مداعبة ومناقشة وتلميح وتجريح، إنها المرة الأولى التي يرى كل فرد في هذه الأسرة صورته الحقيقية أمام الآخر، خصوصاً إدريس الذي أخذ أكبر قسط من التجريح والتوبيخ على عدم اهتمامه بالمذاكرة وعشقه للعب طوال الوقت، وتلك الدرجات السيئة التي يحصدها بنهاية كل عام دراسي، ربما إسماعيل كان في المنطقة الدافئة لأنه كان يهتم بدراسته بعض الشيء، ويحصد درجات جيدة إلى حد ما في نهاية العام الدراسي، أما أفراح فكان سعيد وسناء يقومان برسم صورة لها مبهرة أمام إخوتها الصبيان، انتهت الجلسة، وخلد كل منهم إلى فراشه، كل منه راح يعيد شريط تلك الجلسة ويستمع إلى صوت والده أثناءها ومدى التقييم والتقدير الذي حصده، كان الأمر أكثر صعوبة لدى إدريس، إنه شعر أن والديه يكنان له قدراً وافراً من الكراهية والدليل على ذلك حجم التوبيخ الذي حصده أثناء تلك الجلسة لدرجة جعلته يسأل قبل أن يخلد إلى نومه أخاه إسماعيل الذي يرقد بجواره على الفراش:

- إسماعيل!

- إيه؟

- هو أبويا بيكرهني أوي كده ليه؟
- مين اللي قالك إنه بيكرهك يا عبيط؟
- هو إنت ما سمعتهوش وهو بيتكلم عليا؟
- قال إيه؟
- يا سلام يا أخويا، يعني إنت ما سمعتهوش وهو بيقول عليا إني بايظ وخايب ومش هنفع في العلام؟!
- وهو علشان قال كده يبقي بيكرهك يا عبيط؟
- أمال إيه يا ناصح؟!
- أبوك بيحبك وعايز يشوفك شاطر وناجح، ما تنساش إنك بقيت في الإعدادية يا إدريس وكل سنة بتطلع بملحق، دانت لو بتذاكر ربع الوقت اللي بتلعبه هاتطلع دكتور.
- إنت بتتريق!
- لا والله بتكلم جد، طيب يا ريت أنا أبويا بيدلعني زيك يا إدريس، أبوك بيحبك يا واد بس إنت اللي دماغك مصدية وما بتشتغلش غير في اللعب وبس.

حاول إسماعيل أن يزيل تلك الفكرة التي امتلكت رأس أخيه الصغير وأوضح له بعض الأمور التي يجب أن يأخذ باله منها، نعم، كان إدريس في تلك الفترة مستهتراً لا يهتم بدراسته، كل ما يهمه أو يهتم به أثناء فترة الدراسة هو أن يحصل على المصروف الذي يريده ويحدده، وضح إسماعيل له الكثير من النقاط التي لم يرها إدريس أثناء حكمه على كلمات والده له،

كان هناك الكثير منها توضح أن سعيد يكن قدراً وافراً من الحب تجاه إدريس، كشف له عن تلك الأشياء والتصرفات البسيطة التي لم يلاحظها إدريس في حياته اليومية، وكشف له أيضاً أسباب الغضب الذي ظهر جلياً على كلمات سعيد أثناء حديثه له، ثم تركه لكي يستوعب معنى الكلمات والمواقف التي أخبره عنها، وقام متوجهاً إلى الحمام، تاركاً إدريس يفكر في تلك الكلمات التي كانت تخرج من فم أخيه الكبير لكي تخترق قلبه وتغسل عقله من تلك الأفكار الغريبة التي لحقت به.

على الجانب الآخر ودون قصد أثناء خروج إسماعيل من الحمام استمع إلى ذلك الحوار الذي يدور بين الأب والأم.

– بس دي مصاريف كتير عليك يا اخويا .. إنت هاتجيب فلوس لده كله منين؟

– ربك ما بينساش حد يا سناء، وأهي كلها كام سنة وإسماعيل ياخد الدبلوم ويطلع يشتغل ويساعدني.

– ربنا يديلك الصحة يا سعيد وما يحرمنا منك أبداً.

– ربنا يعينني عليكم ويخليكوا ليَّه يا رب.

كانت تلك الكلمات التي استمع لها إسماعيل دون أن يقصد أثناء خروجه من الحمام حملته الكثير من المسئولية، أدرك أنه المسئول القادم لتلك الأسرة ويجب عليه أن يستعد لتحمل تلك المسئولية الشاقة، توجه إلى غرفته وخلد إلى فراشه وكل ما يشغل عقله هو؛ كيف يكون ذلك؟

مرت الأيام سريعاً وجاء اليوم المنتظر بداخل منزل سعيد، إنه أول أيام

الدراسة، قبل أن يحل صباح ذلك اليوم كان كل من في المنزل في حالة استعداد قصوى، حدث جلل سوف يكون في الصباح، في المساء جاءت وفاء لكي تزور جارتها سناء وتطمئن على أفراح التي تتولي مسئوليتها التعليمية، إنها تتعامل معها كالأم تماماً، هي من قامت بكي ملابس أفراح التي سوف تتوجه بها في الصباح إلى المدرسة، بالإضافة إلى حقيبتها، ولم تترك شيئاً يلزم هذا الحدث إلا وقامت وفاء به، حتى ذلك الحذاء الجديد قامت بتلميعه، وأملت عليها بعض التعليمات ثم طلبت منها أن تخلد إلى النوم مبكراً حتى تستيقظ مبكراً، وهذا ما كان.

في الصباح استيقظ الجميع في تمام السادسة صباحاً، الأبناء بداخل غرفهم، كل منهم يرتدي ملابسه، الأم تقف في المطبخ تقوم بتحضير السندويتشات الخاصة بهم، أما الأب فهو أيضاً بداخل غرفته يرتدي ملابسه ويتأهب للذهاب إلى عمله، ولكنه أيضاً في انتظار خروج أبنائه عليه لكي يحصلوا على المصروف، انتهوا جميعاً وتجمعوا بصالة المنزل، كان سعيد آخر من خرج عليهم، أعطى كلاً منهم مصروفه وقبل أن يغادروا تحدث إلى إسماعيل:

- إسماعيل!

- نعم يا أبا.

- خللي بالك من أختك، ما تسيبهاش غير لما تطمن عليها جوه باب المدرسة.

- حاضر يا أبا.

- أفراح!

- نعم يا أبا، إوعي تسيبي إيد أخوكي الكبير، وأول ما تخلصي إوعي تمشي لوحدك لو ما لقتيش إسماعيل قدام باب المدرسة تقفي تستنيه، وإنت يا إدريس.

- نعم يا أبا.

- أول ما تخلص المدرسة تطلع جري على مدرسة أختك وتقف تستناها لحد ما تخرج وتمسكها في إيدك لحد ما أخوك الكبير ييجي ياخدها منك.

- طيب ما أجيبها وآجي يا أبا.

- ما اضمنكش يا إدريس، إنت هاتقعد تلعب مع أصحابك طول الطريق، أقف مع أختك لحد ما إسماعيل ييجي ياخدها وبعدين روح إلعب زي ما إنت عايز.

- حاضر يا أبا.

- يالَا، خلوا بالكم من بعض، وإنتي يا أفراح اسمعي كلام إخواتك!

تلقوا التعليمات النهائية من الأب وذهبوا، كانت السعادة الممتزجة بالخوف والقلق التي تمتلك قلب أفراح لا توصف أثناء سيرها في الطريق وهي تمسك بيد أخيها الكبير الذي يتولَّى أمر رعايتها، كان نفس الشعور لدى إسماعيل الذي يقبض على يد أخته الصغيرة التي أصبحت مسئولية منذ تلك اللحظة، وكأنه أدرك أنه الآن أصبح رجلاً بمعنى الكلمة، إنه يتحمل مسئولية أخته الوحيدة التي هي قرة عين بقية أفراد أسرته، شيء جعل بداخله معنى كبير، استشعر كلمة رجل، كان يلتفت إلى كل

الوجوه التي تقابله أثناء سيره في الطريق وهو يمسك بيد أخته الصغيرة وكأنه يبحث بداخل عيون من يقابلهم عن كلمة واحدة، لقد أصبحت رجلاً يا إسماعيل، ربما كان يشعر بها من تلك النظرات التي كان يشاهدها في وجوه أهل قريته، أما إدريس فهو كعادته ولم يتغير به شيء، يسير بجوارهما وهو يركل بقدميه تلك الأحجار الصغيرة ويحاول أن يداعب أخته بطريقة طفولية عابثة، مما دفع إسماعيل إلى توبيخه ببعض الكلمات التي لم تؤثر فيه بشكل مباشر، لقد طالبه أن يحافظ على حذائه لأن والده يكد ويتعب من أجل أن يوفر له ثمن ذلك الحذاء الذي يعبث به ويعرضه للتمزق سريعاً، كما طالبه بأن يخفف من مداعبته لأخته في الشارع حتى لا يستمع أحد إلى تلك المداعبة ويداعبها هو أيضاً فيفقدوا الكثير من احترام الآخرين.

كان إسماعيل يتميز بالعقل والرزانة، اكتسب الكثير من صفات والده، أصبح من أكثر الشباب الذين ينالون الإشادة بحسن الخلق والاحترام والتقدير، كانت أفراح كلما اقتربت من مبنى المدرسة تزداد بداخلها الرهبة، كان كل ما يدور بعقلها هو كيف ستسير الأمور بداخل المدرسة؟ ما هو شكل ذلك الفصل الذي سوف تدرس به؟ من هم أصدقاؤها وزملاؤها به؟ كيف سيتعامل معها المعلم والمعلمة؟ لماذا لم تأت أبلة وفاء لكي تعمل في تلك المدرسة وتقوم بتعليمها هي بدلاً من أن يقوم بذلك غيرها خصوصاً أنها اعتادت أن تتلقى العلم على يد وفاء؟ وهل حقاً هناك معلمون يقومون بضرب التلاميذ الفشلة؟ وماذا سيحدث لها

عندما تخطئ؟ هل ستقوم المعلمة بضربها أم إنها سوف تغفر لها ذلك؟ يجب أن تكون متميزة حتى لا تلقى جزاء لا ترغبه يوماً، طرحت تلك التساؤلات وحاولت أن تتوقع الإجابة عليها بمفردها إلى أن وصلت إلى باب المدرسة، إنها اللحظة الفارقة، ترى ماذا ستشاهد بداخل سور تلك المدرسة وما هو المصير المتوقع لها بداخل جدرانه؟

- يالا يا أفراح .. ادخلي بقى مدرستك.

- لا يا إسماعيل تعالى معايا.

- إنتي هاتعيطي ليه بس يا أفراح، مش إنتي كنتي عايزة تكبري علشان تدخلي المدرسة؟

- آه.

- طيب إنتي كبرتي أهو ودخلتي المدرسة بتعيطي ليه بقى؟

- أنا خايفة.

- خايفة من إيه؟

- لاحسن الأبلة تضربني بالعصايا يا أخويا.

- لا ما تخافيش، إنتي عارفة لو حد بصلك بس، أنا هاخزق لك عينيه.

- طيب تعالى ادخل معايا.

- هادخل معاكي بس هاخرج على طول علشان ألحق مدرستي أنا كمان.

- ماشي.

توجه إسماعيل بأخته إلى داخل المدرسة، وطلب منها أن تذهب وتقف في الطابور مثلها مثل باقي التلاميذ والتلميذات، اطمأنت بعض الشيء

عندما استقبلتها إحدى المدرسات وتحدثت معها بأسلوب مميز بعث بداخلها الثقة وأذهب عنها تلك الرهبة والخوف الذي كان يتملكها، لكنها طلبت من إسماعيل أن ينتظر بجوارها حتى تصعد إلى داخل مبنى المدرسة، لم يجد إسماعيل شيئاً أمامه إلا أن ينصاع إلى رغبة أخته الصغيرة التي برغم تصرفاتها الطفولية فهي تتملَّك كل جوارحه وتجعله يشعر بالفخر أمام نفسه كلما استشعر أن أفراح لا تشعر بالأمان إلا في وجوده أمام عينيها، انتهى الطابور وصعدت أفراح إلى داخل الفصل مع باقي زملائها، عندها أسرع إسماعيل متوجهاً إلى مدرسته الثانوية، لكنه وصل في وقت متأخر للغاية، رفض حارس المدرسة (الفراش) أن يفتح له الباب برغم إلحاح إسماعيل عليه، لم يجد أمامه مفراً إلا أن يرضخ للأمر الواقع، وللمرة الأولى تغيب إسماعيل عن أول يوم له في الدراسة، وقف أمام باب المدرسة ولا يعلم إلى أين تكون وجهته، هناك وقت كبير على خروج أفراح من المدرسة، أين سيذهب طوال هذه الفترة، فكر في أن يتوجَّه إلى أحد الأماكن الخاصة بالتسلية والألعاب الحديثة (بلاي ستيشن) يقضي بعض الوقت هناك ثم يعود إلى المدرسة، وبالفعل قرر التوجه لكنه في الطريق تراجع، وهو يخبر نفسه بأن ذلك لا يصح أن يقوم به، بل عليه توفير تلك الأموال التي سوف يدفعها في اللهو واللعب للغد ما دام لم يدخل اليوم المدرسة، واتخذ قراره بأن يتوجَّه إلى مدرسة أخته ويقف أمام الباب وينتظرها حتى تنهي يومها الدراسي.

بالفعل هذا ما تم فعله من جانب إسماعيل، غير وجهته من مكان اللهو

واللعب إلى المدرسة، وقف أمام المدرسة، سأل أحد المارة عن الساعة فوجد أن الوقت لم يتحرك كثيراً منذ أن كان بداخل المدرسة مع أفراح، جلس أمام باب المدرسة دون أن يهتم بالوقت، أخرج كراسته وقلمه وبدأ يرسم لكي يضيع الوقت، بعد فترة وهو منهمك فيما يفعله، وجد من يلكزه بلطف على كتفه، امتلكته رهبة عندما رفع رأسه فوجد أمامه جارته وفاء.

– إيه يا إسماعيل قاعد كده ليه؟ إنت ما رحتش المدرسة بتاعتك ولا إيه؟

– ها، لا يا أبلة وفاء، أصل أفراح ما رضيتش تدخل المدرسة غير لما أدخل معاها، وهي اللي أخرتني على مدرستي.

– طيب وإيه اللي مقعدك كده؟

– مستني أفراح لما تخلص علشان آخدها معايا زي ما أبويا قال لي.

اطمأن قلب إسماعيل عندما شاهد ابتسامة جارته وفاء ترتسم على وجهها، كانت تلك الابتسامة ممتلئة بالفخر والعزة من موقف إسماعيل، طلبت منه أن يدخل معها لكي يشاهد أخته ويطمئن على حالها في أول يوم لها بداخل المدرسة، أخبرته أن لديها إحدى صديقاتها بداخل المدرسة تعمل معلمة سوف توصي على أفراح لكي تأخذ بالها منها وتهتم بأمرها، وبالفعل حدث ذلك ودخل إسماعيل إلى أفراح بصحبة جارته وفاء، وما إن شاهدتهما أفراح إلا وشعرت بسعادة بالغة، طلبت وفاء من صديقتها أن تسمح لأفراح بمغادرة المدرسة حتى يأخذها إسماعيل ويعود إلى

منزله بدلاً من جلوسه أمام باب المدرسة منتظراً خروجها، لكن هذه المرة إسماعيل هو من رفض، وأخبرها أنه سوف ينتظر أخته حتى تنتهي ويأخذها ثم يذهب إلى مدرسة أخيه إدريس وينتظره هناك بدلاً من أن يأتي إدريس إلى هنا، وأخبرها أن والدهم طلب منهم أن يجتمعوا بعد نهاية اليوم الدراسي أمام مدرسة أفراح ثم يتوجهوا جميعاً إلى المنزل، احترم الجميع وجهة نظر إسماعيل، وغادرت وفاء المدرسة متوجهة إلى عملها وبقي إسماعيل خارج أسوار المدرسة منتظراً خروج أخته الصغيرة وقدوم أخيه من مدرسته لكي يتوجه بهما إلى المنزل كما أمره والده.

الفصل الثالث

كان الموقف الذي قام به إسماعيل شيئا يفتخر به حقّاً، ظن أنه سوف يخفي على والده وأمه، لكن وفاء بعد أن انتهت من عملها ذهبت لكي تطمئن على أفراح وصديقتها سناء، جلست وتحاورت معها بعد أن علمت بأن أفراح خلدت إلى النوم وإدريس كعادته ذهب ليلعب أما إسماعيل فقد أخبرها أنه سوف يذهب ليطمئن على أحد أصدقائه، وما إن جاءت سيرة إسماعيل إلا وأخبرتها بذلك الموقف الذي قام به، كانت كلمات الفخر التي تخرج من فم وفاء وهي تحكي عن إسماعيل تسكن قلب سناء برغم غضبها بأنه لم يدخل مدرسته.

كان في تلك الفترة التي تجلس فيها وفاء مع جارتها وصديقتها داخل المنزل، كان سعيد ينهي عمله ويتوجه إلى منزله مسرعَاً، يريد أن يصل اليوم تحديداً بأسرع وقت ممكن، ينبغي أن يطمئن على يوم أفراح الدراسي كيف سار، وماذا حل بها، ترى هل تراخى أحد إخوتها في تلك التعليمات التي أملاها عليهم الأب، وأين حدث وما هو العقاب الذي سوف يصبح

جزاءه، كل ذلك كان يدور برأس سعيد أثناء توجهه إلى المنزل، وما إن وصل إلا وسأل عن الأبناء فأخبرته سناء عما حدث وعما قصته عليها جارتها وفاء وما قام إسماعيل بفعله.

في تلك اللحظات التي كان يستمع فيها سعيد لذلك الموقف الذي قام به إسماعيل في الصباح، كان إسماعيل يجلس مع أحد أصدقائه بداخل منزله (محمود) وهو من أصدقائه المقربين للغاية وبرغم فارق السن الذي بينهما إلا أن محمود كان دائماً يحب ويعتز بصداقته لإسماعيل الذي يصغره بخمس سنوات كاملة، كان محمود في تلك الفترة يعمل في مجال المعمار، كان سر زيارة إسماعيل له هو أنه اتخذ قراراً بالعمل في نفس المجال بالرغم من ارتباطه بالدراسة الثانوية، حاول محمود إقناعه بالعدول عن تلك الفكرة وذلك لصغر سنه وارتباطه بالدراسة لكن إسماعيل كان يصر على ذلك الأمر، اندهش محمود من ذلك الإصرار الغريب الذي عليه صديقه الصغير وسأله:

- إنت عايز تشتغل ليه يا إسماعيل؟
- يا محمود عايز أشتغل وخلاص، هاتعرف تجيبلي شغل ولا لأ؟
- طيب فهمني بس، إنت عايز تشتري حاجة وأبوك ما رضيش؟
- لا، أنا بصراحة عايز أساعد أبويا في المصاريف يا محمود.
- ليه يعني؟ وبعدين يا إسماعيل إنت لسة قدامك مدرسة، طيب يا أخي خد الدبلوم وبعد كده فكر في الشغل.
- يا عم أنا أختي أفراح دخلت المدرسة ومصاريف البيت بقت

حمل كبير على أبويا وإنت عارف أبويا ما حيلتهوش غير مرتبه، واحنا مصاريفنا كتيرة.

– ربنا يعينه يا إسماعيل بس أنا مش هاوافق إنك تشتغل وإنت لسة في المدرسة، ولو عايز تساعد أبوك وتريحه بجد ركز في مذاكرتك وخد شهادتك وبعدين اشتغل وساعده وساعد نفسك.

استشعر إسماعيل أنه ضل الطريق عندما قرر أن يستعين بصديقه وأقرب الناس إليه محمود، وقرر العودة إلى منزله حتى يفكر فيما دار بينه وبين صديقه، ويفكر في شخص آخر يستعين به من أجل الحصول على عمل.

مر الوقت سريعاً، عاد إدريس إلى المنزل بعد أن انتهى من فترة اللعب مع الأطفال في القرية، واستيقظت أفراح من نومها وانتهت سناء من تحضير العشاء، وقام سعيد بالتوجه إلى المسجد لكي يرفع الآذان وعقله مشغول بالتفكير في ابنه إسماعيل، تري أين ذهب؟ ولماذا تأخَّر كل هذا الوقت خارج المنزل؟ ليست عادته ولا من طباعه، رفع الأذان وأقام الصلاة وأداها وما إن التفت حوله بداخل المسجد إلا واطمأنَّ قلبه عندما شاهد إسماعيل يقف ويؤدي صلاة السُّنة، انتهوا وخرجوا من المسجد، عندها سأله سعيد أين كان.. أجابه بأنه كان عند صديقه محمود، لم يتحدثوا كثيراً في هذا الشأن، كان إسماعيل يخشى أن يعلم والده أنه تخلَّف اليوم عن حضوره في المدرسة، وكل ما يرجوه من الله ألا يعلم والده ذلك، لكنه أيضاً يخشى أن تكون جارته وفاء قد ذهبت إلى والدته وأخبرتها، كان

ذلك ما يدور برأس إسماعيل أثناء العودة مع والده إلى المنزل، أما الأب فكان يشعر بالفخر وينظر له باعتزاز شديد أثناء سيره بجواره، كان كل ما يدور في رأس سعيد هو الشعور بالراحة والاطمئنان على أسرته من بعده طالما يوجد هناك من يخلفه في تحمل المسئولية، كان ينظر إلى إسماعيل ابن الخامسة عشرة عاماً وكأنه ابن الخامسة والثلاثين، نعم بالرغم من غياب إسماعيل عن دراسته اليوم إلا أنه أصبح رجلاً يعتمد عليه بداخل تلك الأسرة، هكذا يراه والده وهكذا كان يفكر فيه أثناء عودته وسيره بجواره.

كانت الأم في تلك اللحظات تقوم بتحضير المائدة وتقف أمام باب المنزل من الحين إلى الآخر تنظر وتلتفت حولها لعلها تشاهد إسماعيل الذي خرج ولم يعد إلى الآن، ربما يكون عقلها مشتتاً وقلبها يدق بشدة وروحها مخطوفة على ابنها الأكبر الذي لا تعلم عنه شيئاً منذ أن عاد بعد الظهيرة إلى الآن، وما إن دخل سعيد وخلفه إسماعيل إلا وعادت إليها روحها وتوجَّهت إليه بالسؤال مباشرة:

- إنت كنت فين يا إسماعيل لحد دلوقت؟

- كنت عند محمود صاحبي يا أمه.

- وإيه اللي أخرك عنده لحد دلوقت؟

هنا تدخل سعيد في الحوار ليجيب على سناء بحدة:

- جرى إيه يا سناء، هو إسماعيل عيل صغير ولا إيه؟ ده بقى راجل وقد الدنيا، جهزتي العشا ولا لسة؟

- جاهز يا اخويا.

أنهى سعيد الحوار بالجلوس على المائدة بعد أن أمر زوجته بأن تنادي على باقي الأبناء، ذهب القلق والحيرة التي كانت على وجه الأم وجلسوا جميعاً على المائدة تناولوا الطعام وانتهوا وقامت أفراح بإفراغ محتويات المائدة مع والدتها بعد أن انتهوا من تناول الطعام، وعادت إلى بقية أفراد الأسرة وتبادلوا الضحكات والسمر إلى أن بدأ النعاس يغالبهم، قامت أفراح متوجهة نحو غرفتها لكي تنام حتى تستيقظ مبكراً للمدرسة، وفعل إدريس نفس الشيء، وعندما هم إسماعيل بالذهاب إلى غرفته استوقفه والده وطلب منه الجلوس معه بعض الشيء، كما طلب من زوجته أن تتركهما بمفردهما، عندها استشعر إسماعيل الخوف والقلق، أدرك أن هناك شيئاً ما يخفيه القدر له، انصاع إلى أمر والده وجلس، نظر له سعيد بتأمل وتوجه إليه بالسؤال:

- هو إنت ما رحتش المدرسة ليه النهادرة؟

- أصل، أصل بصراحة يا ابا اتأخرت والفراش ما رضيش يفتح لي الباب.

- ليه يا إسماعيل.

- والله يا أبا أنا خرجت بدري قدامك، بس أفراح هي اللي أخرتني، ما كانتش راضية تسيبني أمشي، وعيطت، وأنا ما هانش عليا أسيبها تعيط وأمشي.

- وبعدين، رحت فين لما الفراش ما رضيش يدخلك المدرسة.

– والله العظيم رجعت على مدرسة أفراح وقعدت قدام الباب مستنيها لحد ما تخلص، حتى اسأل خالتي وفاء.

هنا ربت الأب على كتف ابنه وابتسم في وجهه لكي يزيل تلك الرهبة التي شاهدها في وجهه، وأخبره أنه علم بكل شيء وأخبره أيضاً أنه فخور به لأنه قام بذلك الفعل.

كانت تلك الكلمات التي تخرج من فم سعيد تعبر عن مدى السعادة التي استشعرها الأب بابنه، أخبره أنه فخور بذلك الفعل وطلب منه أن يبقى على ذلك الحال، وأن يخشى على أخته الصغيرة وأخيه أيضاً، وأن يضعهما دائماً نصب عينيه ولا يغفل عنهما للحظة واحدة، ثم طلب منه أن يخلد إلى النوم بعد أن أخبره أنه إن انتقل إلى الحياة الآخرة وعادت روحه إلى خالقها سيكون مطمئناً على أفراد أسرته.

خلد إسماعيل إلى فراشه وهو يفكر في تلك الكلمات التي أخبره بها والده، كان كل ما يحزنه أنه تحدث معه عن موته وما بعد ذلك، كان سعيد في نظر إسماعيل قدوة وقيمة ليست لها حدود، لم يظن أنه يتحدث معه يوماً عن يوم رحيله، نعم تلك هي الحقيقة التي يجب أن يسلم لها الآن، الجميع سيرحل، لكنه لا يقوى على فراق أعز ما له في الحياة، والده وأمه وإخوته، هؤلاء هم فقط من يمتلكون قلب ذلك الصبي الصغير ذي الصفات الطيبة، لكن لا مفر من القدر وعليه منذ تلك اللحظة أن يتأهب إلى ذلك حتى إن جاء أجل أحدهم لا يهدر وقتاً في البكاء مثل الأطفال والضعفاء بل يقف وبكل قوة ويقوم هو بإكرام موتاه.

كانت كلمات سعيد إلى ابنه كالدرس الأخير له في تلك الحياة الذي سوف يتلقاه من والده، احتكم الأمر، إنه العام الأخير له في الدراسة لن يهدر وقتاً كبيراً في البحث عن عمل الآن، بل سوف يكرس كل طاقته لمذاكرته ومراعاة إخوته، وما إن يحصل على شهادته إلا ويلتحق بالعمل الذي يبحث عنه.

دارت الأيام ومرت سريعاً، جاء يوم الامتحان للسنة النهائية لإسماعيل، وكذلك الأمر لدى إدريس الذي سوف ينتقل في حالة النجاح إلى المرحلة الأخيرة من الإعدادية، أما أفراح فها هي تذاكر دروسها بمساعدة معلمتها وجارتها وأقرب الأشخاص إلى قلبها بعد أفراد أسرتها، ظهرت النتيجة بعد أداء الامتحان، كانت أول الشهادات التي ظهرت تخصُّ أفراح والتي ختمت بختم المدرسة وإمضاء مديرها الذي يعلن ناجح ومنقول للصف الثاني، كانت درجاتها مبهرة، إنها الأولى على المدرسة، الأفراح عمت بداخل المنزل على الجميع، وليس فقط على منزلها بل أيضاً داخل منزل وفاء التي ساهمت كثيراً وبشكل كبير في حصد تلك الدرجات، ثم يأتي بعد ذلك دور إدريس الذي حصد درجات ليست بالمبهرة، ربما إن كان التصنيف والتقدير جامعيًا سنقول إنه مقبول لكنه حصل أيضاً على شهادة بها ختم على كلمة ناجح ومنقول للصف الثالث، لم يبق سوى إسماعيل الذي لم يهتم بالنتيجة، بل ذهب بعد ثلاثة أيام فقط للعمل مع صديقه محمود في مجال المعمار، نعم لم يهتم بعدد الدرجات التي حصدها بل كان كل ما يهمه أن ينهي دراسته الثانوية ويحصل على شهادة

الدبلوم حتى يتفرغ للعمل، لم يحاول الأب منعه من تحقيق رغبته في العمل عندما رأى إلحاحًا شديدًا وإصرارًا على ذلك، إلى أن ظهرت نتيجته، لقد حصل على درجات تؤهله إلى دخول الجامعة إن أراد، ربما راوده ذلك الحلم يوماً ما، لكنه عاد إلى أرض الواقع لكي يتذكر ما وُكل إليه من مهام ومسئوليات، فنبذ الفكرة سريعاً وذهب إلى طموحه وتحقيق حلم العمل وتغيير المستوى المادي والمعيشي الذي هو فيه، هكذا كان يفكر إسماعيل وهكذا فعل.

درات الأيام سريعاً، كبرت أفراح ووصلت إلى السنة النهائية في التعليم الابتدائي، اختلف النظام قليلاً في تلك المرحلة، لقد توجه إسماعيل إلى التجنيد وأصبح مجنداً في القوات المسلحة يؤدي الخدمة الوطنية، أما إدريس فقد حصل على شهادة الدبلوم وخرج إلى سوق العمل بعد أن أدرك وتعلم بعض القيم التي تعلمها واكتسبها من أخيه الكبير، وبالرغم من غياب إسماعيل عن المنزل إلا أنه ظل في خاطر أخته الصغيرة التي تكبر يوماً بعد الآخر سريعاً، انتقلت أفراح بعد ذلك إلى المرحلة الثانية من التعليم الأساسي، الإعدادية، في تلك المرحلة اختلف النظام قليلاً، تقدم الأب في السن وكذلك الأم، التحق إسماعيل بالتجنيد، ووصل إدريس إلى العام الثاني من التعليم الثانوي، أما أفراح فبدأت ملامح الأنوثة تغزو جسدها، بدأت تدرك ذلك، تهتم بمظهرها، تذهب وتعود إلى المدرسة بمفردها، أدركت واجباتها تجاه المنزل، بدأت تتعاون مع والدتها في عمل البيت من نظافة وتجهيز الطعام وما شابه ذلك، لكن ذلك لم يقف مانعاً في

طريق تدليلها، فهي ما زالت تطلب وعلى الجميع أن ينفذ طلباتها، إلى أن انتهت من المرحلة الثانية من التعليم الأساسي، مع تلك المرحلة أنهى الأخ الكبير فترة خدمته في الجيش، وحصل إدريس على شهادة إتمام المرحلة الثانوية وخرج هو الآخر إلى سوق العمل، إلى أن تم تجنيده.

مرت الأيام والشهور بلغت أفراح عامها السادس عشر، أدرك الأب أن ابنته التي أصبحت كاملة النضج غداً سيأتي من يطلبها للزواج، بدأ في التفكير في هذا الأمر بصوت عالٍ مع أخيها الكبير، كان الأمر بالنسبة إليهم حملا كبيرًا يجب أن يتحملوه، مما دفع اسماعيل لأخذ القرار بالسفر إلى الخارج، فهو أيضاً يريد أن يتزوج، والظروف الاقتصادية التي يعيش وسطها لا تسمح بأن يوفر من المال ما يزوجه ويجهز أخته الوحيدة للزواج، أخذ القرار وأنهى الإجراءات وسافر للعمل في إحدى دول الخليج، كانت أفراح في ذلك الوقت في المرحلة الثانية من التعليم الثانوي، دخلت على أخيها غرفته أثناء جلوسه بمفرده بها وتحدثت معه وهي تخشى غيابه مجدداً بعد أن غاب عنها فترة ليست بالقليلة أثناء تجنيده.

- هو إنت عايز تسافر ليه يا إسماعيل؟

- علشان أشتغل وأكسب فلوس.

- يا اخويا ما إنت هنا بتشتغل وبتكسب والحمد لله.

- بس يا أختي الدنيا هنا بقت صعب قوي، الشغل واقف زي ما إنتي شايفة، أنا هنا بشتغل أسبوع وبقعد الثاني في البيت.

- يا أخويا رب هنا رب هناك، وبعدين الرزق ده بتاع ربنا، يعني إنت

هاتاخد أكتر من اللي مكتوب لك.

– وإنتي.

– أنا إيه.

– مش عايزة تدخلي الجامعة، مش ها تتجوزي، مش عايزة جهاز، أبونا يا أفراح كبر وأنا لازم أشيل عنه بقى.

– مش عارفة أقول لك إيه يا إسماعيل، بس أنا بحبك قوي يا أخويا ونفسي ما تسيبنيش وتطول الغيبة.

– ما تخافيش، عمري ما هاغيب عنكم.

– ربنا ما يحرمنا منك يا اخويا.

كانت تلك الكلمات التي خرجت من فم إسماعيل كفيلة بأن تجبر أفراح علي الصمت، بتلك الكلمات رضخت إلى الأمر الواقع، يجب أن يذهب إلى العمل حتى يحصل على ما يريد له ولباقي أفراد الأسرة ويوفر على والده عناء التفكير في الغد القريب، هكذا رأت أفراح الأمر، ودارت الأيام سريعاً وغادر إسماعيل إلى عمله في تلك الدولة التي اختار أن تكون وجهته، وهي أصبحت فتاة ذا ملامح جميلة للغاية، ذات مظهر رائع يلفت لها الأنظار، أدركت ذلك، عندما يستهويها التفكير في هذا الأمر، كانت تفكر من هذا المنطلق، نعم إنها أجمل بنات القرية والمدرسة، أكثرهم جمالاً وأنوثة وشياكة، إسماعيل يرسل لها كل ما تريده من الخارج من ملابس وأموال وأشياء أخرى، الأم تنظر لها بفخر وسعادة، تتباهى بها وسط نساء القرية، الجميع يشهد بجمالها وحسنها، لكن الأب الذي لا

ينظر إلى أسفل قدميه يخشى عليها من الأيام، كان دائماً ينصحها بألا ترفع رأسها إلى السماء، دائماً يحذرها من التحدث إلى الشباب وعدم التطرق إلى مشاعرها والسعي خلف قلبها، كان يدرك خطورة تلك المرحلة العمرية التي تمر بها، إنها مرحلة المراهقة، كان يحاول أن يجعلها تتغلب على ذلك من خلال الدراسة والمذاكرة، كان يطالبها بأن تثبت نجاحها أمام أهل القرية جميعاً وأمام زملائها بالمدرسة.

وصلت إلى المرحلة النهائية من الثانوية، وقبل الامتحانات اعتصمت بداخل غرفتها بعد أن حلمت كثيراً بأن تذهب إلى الجامعة، وقصَّت ذلك الحلم على والدها ذلك الأب الحنون الذي لم يرفض لها طلباً، وأعطاها وعداً بأن يحقق لها حلمها بشرط أن تسعى هي إلى تحقيق الحلم بنفسها وتحصل على درجات عالية تؤهلها للالتحاق بالجامعة، كانت تلك الفترة هي أصعب المراحل التي مرت علي أفراح في حياتها منذ أن ولدت، إنها المرة الأولي التي تتحمل فيها مسئولية تحقيق شيء ترغب فيه، الأمر مقتصر عليها هي بمفردها، فلن يدخل الأب مكانها الامتحان لكي يجيب عن الأسئلة، كان التحدي واضحاً، ومن أجل ذلك أخذت قرارها بالوصول إلى تحقيق حلمها.

في تلك الفترة لم تعرف أفراح شيئاً في حياتها إلا الدروس، المذاكرة، المنزل وواجباته، تركت اهتمامها بمظهرها وبملابسها وبكل شيء من أجل حصد الدرجات التي ترغب فيها، كانت تعود من المدرسة وتقوم بتغيير ملابسها وأداء الأعمال المنزلية المخولة إليها ثم تتناول طعامها مع

الأب والأم فقط وذلك لأن إدريس في تلك الفترة قد التحق بالتجنيد لأداء الخدمة العسكرية، وما إن تنتهي من تناول الطعام إلا وتدخل غرفتها وتنهمك في المذاكرة، لاحظت الأم ذلك وتحدَّثت إلى الأب متسائلة:

– هو إنت يا سعيد هتوافق إن البنت تدخل الجامعة؟

– وما أوافقش ليه يا سناء؟

– بلاش يا سعيد .. الحكاية مش ناقصة كلام أهل البلاد.

– بقولك إيه، بلاش إنتي جهل وما لكيش دعوة بالموضوع ده، واحنا نطول إن بنتنا تتخرج من الجامعة ويبقى معها شهادة كبيرة.

– يا سعيد إحنا ما عملناش كده مع إخوتها الصبيان.

– إخوتها الصبيان ما عملوش كده مع نفسهم، وبعدين البنت شاطرة وعايزة تتعلم نحرمها ليه من اللي نفسها فيه؟

– يا سعيد.

حاولت الأم أن تجعل الأب يتراجع عن فكره، لكن الأب كان ينظر إلى الأمر برؤية مختلفة تماماً، إنها الحرية التي يرغب أن تحصل في كل دار بداخل تلك القرية البسيطة التي يعيش فيها، حرية التحرر من قيود العادات والتقاليد التي تحيط بالفتاة التي تشبه أفراح، وعلى الجانب الآخر يكسب بعض الوقت لكي يوفر لها كل مستلزماتها التي ستحتاجها عند زواجها، أخبر سعيد زوجته سناء بذلك الأمر وأقنعها بوجهة نظره الثاقبة، وجاءت أيام الامتحان، كانت أفراح تعيش حالة من الرعب والقلق المستمرين في الفترة التي تسبق الامتحان، كل ما تخشاه هو ألا تصل إلى ما تحلم به، لكن

على الجانب الآخر كان سعيد يقوم بتشجيعها ويحمسها ويشد من عزمها لكي تصل إلى حلمها ويبث بداخلها الثقة في نفسها، كانت أفراح تذهب إلى الامتحان وتعود مباشرة وقبل أي شيء آخر تمسك بورقة الأسئلة وتقوم بمراجعة الإجابة وتتأكد من الصواب وتندب حظها على أخطائها البسيطة التي وقعت فيها، ثم تؤهل نفسها للامتحان التالي، إلى أن انتهت فترة الامتحان ولم يتبق إلا أن تظهر النتيجة، كانت تعيش في تلك الفترة حالة من القلق الشديد، ترفض الخروج من المنزل، لا تفعل أي شيء في حياتها بعد أن تقوم بواجباتها المنزلية إلا الانتظار، إلى أن ظهرت النتيجة وجاء سعيد إليها ليبشرها بالنجاح والتوفيق، عندها لم يستطع أن يمسك نفسه من الفرحة، لقد نجحت أفراح في اجتياز أصعب اختبار في حياتها، وسوف تحقق حلمها وتذهب إلى الجامعة.

الفصل الرابع

عادت أفراح إلى منزلها بعد أن عانت الكثير من المصاعب والمتاعب في أول يوم لها في الجامعة، لكن كل ذلك تحول بداخلها إلى لحظات سعادة غامرة عندما بدأت التفكير في كل شيء حدث معها منذ أن خرجت من باب منزلها إلى أن عادت، رأت شريطًا كاملًا من الصور التي حدثت لها منذ البداية، ابتسمت وهي تسترجع لحظات خطواتها نحو الجامعة ومدى تسارع نبضات قلبها كلما اقتربت من باب الجامعة الرئيسي، وشعورها بأنها في عالم آخر عندما وقفت تائهة وسط الجامعة لا تعلم إلى أين تذهب، وتلك النظرات التي كانت تلاحقها في كل خطوة تخطوها بداخل الجامعة إلى أن خرجت منها، وكم السخرية التي وجهتها إلى نفسها عندما استرجعت كل هذه الأحداث أثناء عودتها إلى المنزل، كانت نظرات أهل القرية إليها أثناء سيرها وهي متوجهة إلى منزلها لها معانٍ كثيرة، يصعب على أفراح في ذلك العمر إدراكها، ربما تكون دهشة، ربما تكون استنكارًا، ربما تكون إعجابًا، لكن في النهاية أصبحت أفراح حالة شاذة

وسط أهل قريتها، كانت هناك أشياء كثيرة تدور في مخيلتها إلى أن وصلت إلى باب منزلها، وهنا تغيرت كل الأفكار عندما سألتها الأم عن يومها الأول في الجامعة، كل منهما كانت له وجهة نظره في السؤال والإجابة، سناء كانت تود أن يطمئن قلبها على ابنتها فهي المرة الأولى لها التي تخرج فيها إلى المحافظة دون أن يرافقها أحد، ومن المعلوم أن أفراح لها مكانة خاصة في قلب الأم لذلك كانت اللهفة واضحة في السؤال، أما أفراح فذهبت تخبرها عن مدى سعادتها وشعورها بالفخر أثناء سيرها في القرية والجميع ينظر لها باحترام وإعجاب، ثم قصَّت لها في حدود الممكن عما قامت به من لحظة وصولها الجامعة إلى أن غادرتها، وأخرجت لها الورقة التي كتبت فيها المتطلبات والمصاريف وما شابه ذلك، ثم توجَّهت إلى غرفتها وقامت بتغيير ملابسها وهي تتذكر بعض الكلمات التي سمعتها من هؤلاء الموجودين بداخل الجامعة أثناء إبداء إعجابهم بها، إنه شعور جميل يتملكها، أدركت أنها فتاة جميلة استطاعت عيون الجميع أن تؤكد ذلك، وما إن انتهت من تغيير ملابسها إلا وعاد والدها من العمل، كان يسابق اللحظات لكي يعود إلى منزله حتى يطمئن على أفراح، وما إن شاهدها إلا وشعر بالفخر والكبرياء، اطمأن على حالها وعلى يومها الجامعي، أخبرته بما أنجزت، تناولوا الغداء ومع أول ساعات الغروب ذهبت إلى نومها، فغداً عندها يوم طويل، أما سعيد فجلس مع زوجته سناء وراحوا يتحدثون عما آلت إليه الأيام، أبناؤهم كبروا، لقد أصبح إسماعيل رجلاً يعتمد عليه، بينما إدريس يبدو أنه سوف يسلك نفس

الطريق بعد أن ينتهي من خدمته العسكرية، أما أفراح فها هي بنت الثامنة عشرة صارت طالبة جامعية يتباهى بها كل من يقع بصره عليها من أهل القرية، لم تشعر سناء أثناء سردها بتلك الأشياء مع زوجها سعيد أن الكبر أصابها أيضاً، لكن سعيد ذلك الرجل الناضج صاحب الفكر المستنير أبى أن يتغاضى عن ذلك الأمر، إنها سُنة الحياة، تمضي الأيام ونسابقها لكنها في النهاية تبقى ويرحل الجميع.

كان هذا حال الأب والأم بداخل غرفتهما قبل خلودهما إلى النوم، أما أفراح فكانت في عالم آخر وحالة مختلفة تماماً، إنها تعيش لحظات عابرة، فالسعادة التي تغمرها لا توصف من أثر ذهابها إلى الجامعة، وما حدث لها من هؤلاء الشباب الذين فتنوا بها من أول نظرة، طرحت على نفسها سؤالاً، إن كان هذا حالهم في أول يوم شاهدوني فيه ترى ماذا سيحدث بعد ذلك؟ كان ذلك السؤال الذي طرحته بدافع الأنوثة كفيلًا بأن يعود بها مجدداً إلى طبيعتها الصعيدية، تذكرت وعود أخيها الكبير لها، وكيف تحمل مسئولية تحقيق الحلم الذي كان يراودها، وتكاليف الجامعة، والملابس وكل ذلك، وراحت تخبر نفسها بحقيقة الأمر، إنه فعل ذلك من أجل أن يفتخر بنجاحها، لا من أجل أن تلحق به العار، نعم كان ذلك هو أسلوبها في التفكير، إنها البيئة مهما تغيرت وتطورت تظل بها أساسيات لا تتغير مثل هذه الشمس وهذا القمر، فمن العار عند الفتيات في الصعيد أن تتعرف على شاب وتكون صديقته يوماً ما ويكون بينهما حب، الحب في تلك البقعة يعني الزواج المباشر، المحبوب عند الفتاة الصعيدية هو الزوج

وغير ذلك يصبح عاراً، تلك هي ما علمتهم عاداتهم وتقاليدهم، عادت أفراح إلى عقلها مجدداً وتركت كل ما خيل لها من أفكار الانفتاح التي شردت إليها، ربما يكون ذلك لبضع الوقت لكن ترى ماذا سيحدث لها بالغد، إلى أين سوف يسوقها تفكيرها بعد أن التحقت بالجامعة التي لا تعترف بالعادات والتقاليد، إنها تعترف فقط بالنظام والقوانين والحريات العامة، كان هذا ما يدور في مخيلة أفراح قبل أن تخلد إلى النوم بعد أول أيام الجامعة.

في الصباح استيقظت مبكراً، ارتدت ملابسها وتوجهت إلى المحافظة، لكن كانت جهتها الأولى ليست الجامعة إنما هو مكتب البريد، توجهت لكي تسحب من رصيدها الذي فتحه لها أخوها إسماعيل لكي تسدد مصاريف الجامعة، وبالفعل حصلت على المبلغ الذي يلزمها، ثم توجهت إلى أقرب ستوديو حيث التقط لها الصور التي تلزمها لاستخراج الكارنيه الخاص بالجامعة، انتهت من ذلك كله ثم توجهت بعد ذلك إلى الجامعة، قامت بتسديد المصروفات ثم إلى شئون الطلاب لكي تنهي كل الإجراءات، وما إن انتهت إلا واستشعرت الجوع، أدركت أنها لم تتناول شيئاً منذ أن استيقظت إلى منتصف اليوم، خرجت من مكتب شئون الطلاب وتوجهت مباشرة لكي تبحث عن الكافيتريا بعد أن خرجت عن صمتها وأوقفت إحدى الفتيات لتسألها:

- لو سمحتي، هو فيه كافتيريا هنا؟

كان السؤال كفيلاً بأن يعرف شخصية أفراح لتلك الفتاة، فأجابتها

مبتسمة:

- إنتي لسة سنة أولى ولا إيه؟
- آه، ومش عارفة بصراحة الجامعة كويس.
- طيب تعالي لما أعرفك على كل حاجة فيها، هو إنتي اسمك إيه.
- أنا أفراح.
- الله، اسمك حلو أوي يا أفراح.
- ربنا يخليكي ياااا.
- سما، اسمي سما.
- عاشت الأسامي يا سما.
- تعالى بقى ندردش واحنا رايحين على الكافيتريا.
- يالا بينا.

وتوجهتا نحو الكافيتريا، لم تكن سما على القدر الكافي من الجمال برغم حسنها، ويعود ذلك إلى الجمال الفائق الذي تتمتع به أفراح الذي قلل من جمال سما أثناء سيرهما بجوار بعضهما، كان ذلك حكم كل شباب الجامعة، أما الفتيات فكانت تنصب تعليقاتهن على ملابسها الراقية وتلك الإكسسوارات التي ترتديها، نعم، أفراح تمتلك كل مميزات السحر الذي يجبر كل من يراها أو تمر من أمامه أن يلتفت لها، لكنها لم تهتم بذلك، فهناك قواعد ترتبط بها وتحكمها حتى في علاقتها، مبدأها الأساسي أنها أتت إلى الجامعة لكي تتعلم وتدرس وفقط.

أثناء سير أفراح وسما في الحرم الجامعي دار بينهما الحديث، تعرفت

أفراح من خلاله على سما بشكل أكبر فهي طالبة في الفرقة الثانية، تدرس في نفس الكلية التي التحقت بها أفراح، لكنها تسكن في المدينة التي تقع بها الجامعة، أما أفراح فراحت تخبرها بمعظم تفاصيلها، ومن هنا بدأت بينهما صداقة، أصبحت سما أول أصدقاء أفراح بداخل الجامعة، وما إن وصلا إلى الكافيتريا وتناولا بعض الأطعمة السريعة إلا وبدأت العلاقة بينهما تكبر بشكل ملاحظ، اتفقا بعد أن تمسك كل منهما برأيه على دفع الحساب، وانتهى الأمر على أن تدفع أفراح يوماً وتدفع سما اليوم التالي، جلسوا قليلاً بداخل الحرم الجامعي دار بينهما حوار عن الحياة الجامعية، أخبرتها سما بمعظم مجريات الأمور بداخل الجامعة.

كانت أفراح في ذلك الوقت تتابع التحركات والأحداث الغريبة من وجهة نظرها التي تراها أمام عينيها، الجميع يسيرون في مجموعات، الشباب مع الفتيات بشكل عادٍ جداً، هناك مجموعات ما زالت تلعب تلك الألعاب التي كانت تلعبها أفراح أثناء طفولتها، وهناك من يقومون بأفعال وأشياء كانت بالنسبة لأفراح شيئاً جديداً عليها، ربما كانت تزعجها بعض المواقف والمشاهد التي تدل على الاختلاط، لكن سما قللت من أهمية ذلك وأخبرتها أن تلك الأشياء عادية جداً هنا بداخل الجامعة، أخبرتها أيضاً أن تمهد نفسها إلى ما هو أغرب وأعجب من ذلك، كانت تلك المقولة بالنسبة لأفراح مثيرة للدهشة، وقبل أن تعرف معنى تلك الكلمات جاء إلى سما أحد أصدقائها وصافحها، ومد يده إلى أفراح لكي يصافحها لكنها لم تفعل ذلك وأصيبت بحالة من الارتباك.

- إزيك يا سما؟
- أهلا إزيك يا خالد، إنت فين يا ابني؟
- أهو .. موجود.
- آه، أفراح صحبتي، لسه في سنة أولى.
- أهلا وسهلاً!
- أهلاً بيك، معلش مش بسلم بالإيد.

كان الموقف بالنسبة لها محرجاً، وبالنسبة إلى سما وصديقها مدهشًا، أدركت أفراح ذلك، استشعرت الحرج وقررت الانصراف، لكن سما دون أن تقصد زادت إحراجها عندما سألتها عن رقم هاتفها المحمول، كان السؤال بالنسبة لأفراح غريباً للغاية فهي لم تفكر يوماً أن تحمل هاتفاً محمولاً برغم أن الجميع حولها يحمله الآن، لكن أفراح أخبرتها أنها سوف تخبرها برقم الهاتف فيما بعد لأنها يجب أن ترحل الآن للأهمية، أثار رد فعل أفراح علامات الدهشة والاستغراب على سما وصديقها مما دفع الصديق للسؤال:

- هي مالها كده؟
- مش عارفة.
- بس بيني وبينك، زي القمر، صاروخ بنت الإيه.
- احترم نفسك يا خفيف .. أحسن لك.

ودار بينهما حديث قصير عن أفراح، حاول خالد من خلاله أن يعرف أكبر كم من المعلومات عن أفراح لكن سما لم تخبره بالكثير، اكتفت بأن

تخبره بأنها في الفرقة الأولى وتقطن في إحدى القرى الملحقة بأحد المراكز في المحافظة، دون أن تخبره باسم القرية أو المركز تحديداً، ثم انتقل الحديث بعد ذلك في العموم حتى لا يهتم خالد بأمر أفراح أكثر مما يجب.

لكن الأمر كان مختلفاً تماماً لدي أفراح، فمنذ أن تركت سما وهي تحاول أن تسير بأقصى سرعة لكي تصل إلى البوابة وتغادر الجامعة في أقل وقت ممكن، وما إن خرجت من باب الجامعة إلا واستشعرت أنها عادت للحياة مجدداً، تساءلت: ماذا حدث منذ قليل؟ هل من الطبيعي أن أمد يدي وأصافحه بكل هذه السهولة؟ هل كان من اللائق أن أرفض مصافحته؟ كانت عيناه تحدق في بشكل ملحوظ، نعم، بالرغم من خجلي ونظري للأرض لكنني لاحظت ذلك عندما رفعت طرف عيني لكي أتعرف على ملامح وجهه، انتهى الأمر عندها أنه شاب قليل الأدب ويجب ألا تتعامل معه مهما كان، فمن غير اللائق أن يتصرف بذلك الأسلوب الذي تصرف به، ثم إنه لا يعرفني فلماذا مد يده لكي يصافحني؟ وما سر تلك الابتسامة العريضة التي كانت تكسو وجهه؟ ألا يستحي؟ ألا توجد حمرة الخجل عنده؟ إنه لم يتعلم أي شيء من أبسط العادات والتقاليد التي يجب أن تكون لديه.

كان أمرًا غريبًا بالنسبة لأفراح، أما الأمر الآخر المحرج فهو الهاتف المحمول، استشعرت أفراح أن سما لم تقصد إحراجها في ذلك الأمر أمام صديقها، أدركت أهمية الهاتف المحمول، فمنذ أن وجد وهي تنظر له دون اهتمام، لا قيمة له في حياتها السابقة، لكن يبدو أنه الآن أصبح من

الضروري أن يكون لديها هاتفها الخاص بعيداً عن هاتف المنزل، لأمور كثيرة، أهم تلك الأمور أن تستطيع أن تتواصل مع صديقاتها بمنتهى السهولة واليسر، نعم، سما لديها حق في ذلك الأمر، لكن يجب أن تعرض أفراح ذلك الأمر على والدها أولاً وتحصل على إذن منه لكي تقوم بشراء هاتف محمول، فهو أمر لا يكون بتلك السهولة خصوصاً لأن سناء كانت تتحدث عمن يحملون تلك الهواتف بشكل غير لائق مما يجعل الأمر صعباً في إقناع الأم تحديداً، فالأم ترى أنه ما دام هاتف المنزل موجوداً فما الداعي للهاتف المحمول، إنه زيادة مصاريف ليست لها قيمة، هذا فكر الأم، ترى ماذا سوف يحدث عندما تطلب أفراح ذلك الطلب؟ وهل ستتغير وجهة نظرها في الأمر؟

كان ذلك كل ما يشغل بال أفراح أثناء عودتها إلى المنزل، وما إن عادت إلا ووجدت حالة من القلق والخوف تتملك الأم بشكل ملحوظ.

لم تشعر أفراح أن الوقت داهمها إلى أن كادت الشمس أن تغرب وهي ما زالت خارج المنزل، لم تعتد سناء على طول فترة غياب ابنتها إلى هذا الوقت، وكانت تلك الفرصة التي يجب أن تقتنصها أفراح لكي تحصل على ما ترغب، إنه الهاتف المحمول.

- إيه يا أفراح، إتأخرتي ليه كده يا بنتي؟

- هو إنت لسة ها تسألها يا سعيد؟! ما أنا قولت لك من الأول بلاش موضوع الجامعة ده.

- استني بس إنتي يا سناء.

- أنا ما اتأخرتش ولا حاجة يا بابا، أنا يا دوب خلصت الإجراءات ودفعت المصاريف وجيت على طول.

- دفعتي المصاريف، منين يا أفراح؟

- ها، أخويا إسماعيل يا بابا كان مديهم لي وقال لي إوعي تقولي لبابا، وبعدين إنتي قلقانة كده ليه يا ماما، أمَّال لما المحاضرات تبدأ هتعملي إيه؟

- محاضرات إيه دي كمان؟!

كانت تلك الكلمة كفيلة بأن تحد من حالة الاحتقان التي أصابت الجميع.

- المحاضرات دي يا ماما حاجة كده زي الحصص.

- طيب ما تقولي الحصص، ولا علشان أنا جاهلة يعني.

- إنتي ست الكل يا ماما، وبعدين يا ستي ولا يهمك حاجة، أنا إسماعيل إداني فلوس علشان أشتري تليفون محمول مخصوص علشان تكلميني عليه وتطمني عليا.

- إيه، إنتي كمان عايزة تشيلي محمول؟

- أمال عايزانا نطمن عليها إزاي بس يا سناء، بس قولي لي يا أفراح، الفلوس دي إدهالك إسماعيل إمتى؟

- قبل ما يسافر بيوم يا بابا.

لم يجد سعيد رداً على إجابة ابنته إلا تلك الابتسامة الممتزجة بالحسرة، أدرك الأب أن ابنه قرر رفع كل ما يعيق أخته عن تحقيق حلمها عن كاهل الأب، حتى أبسط الأشياء، بل أكثر من ذلك، ترك فائضاً من الأموال

لكي يعوضه سنوات الشقاء والتعب، كبر إسماعيل في نظر والده أكبر مما هو عليه لدرجة استشعر فيها سعيد أنه هو الابن وأن إسماعيل أصبح الأب وهو العائل الأول لهذه الأسرة.

انتهى الأمر، حصلت أفراح على رغبتها، في الصباح ذهبت إلى مكتب البريد وقامت بسحب مبلغ من المال واشترت الهاتف المحمول، كانت أول مكالمة لها من خلاله إلى ذلك الأخ الذي أصبح بالنسبة لها مصدر السعادة، المتكفل الأول بها في عالمها، قبل أن تغادر المنزل في الصباح نقلت رقم هاتفه الدولي، وفور تشغيل الهاتف حادثته.

- آلووو.

- أيوه مين؟

- أنا أفراح يا إسماعيل، وحشتني.

- أفراح، إزيك يا حبيبتي، إنتي وحشاني قوي، أخبارك إيه؟ وأبوكي وأمك وأخوكي إدريس، كلكم حلوين؟

- إحنا كلنا حلوين ومش ناقصنا غير إنك تكون معانا.

- طمنيني عاملة إيه في الجامعة، الدراسة بدأت ولا لسة؟

- آه بدأت ودفعت إمبارح المصاريف زي ما قولت لي، وكمان اشتريت التليفون المحمول اللي أنا بكلمك منه ده.

- ألف مبروك يا حبيبتي، عايزك تنجحي وتشرفيني يا أفراح، وترفعي رأس أبوكي في البلد كلها.

- حاضر، حاضر يا أخويا، إسماعيل، أنا بحبك قوي، ربنا ما يحرمني

منك يا رب.

– وأنا بحبك قوي قوي، ولو نجحتي وجبتي درجات حلوة هاجبلك معايا هدية عمرك ما كنتي تحلمي بيها.

– ربنا يخليك ليا يا رب.

كانت تلك الكلمات والمشاعر الصادقة كفيلة بأن تنهمر دموع أفراح من عينيها دون أن تدري، خصوصاً أن الرصيد لم يكن كافياً لأي كلمة أخرى، كانت سما تجلس بجوار أفراح في ذلك الحين، أدركت كم المشاعر والحب الذي تتمتع به أفراح من ناحية أخيها لها، عندما رأت دموع أفراح أدركت أن تلك الفتاة بداخلها قلب لا يشوبه شائبة، ناصع البياض، علمت أن إسماعيل هو الذي يتكفل بكافة المصروفات الخاصة بها، شرد خيالها في رجولته وشهامته وإدراكه للمسئولية، وعادت لكي تخبر صديقتها الصغيرة أفراح أنها يجب أن تفتخر بذلك الأخ، إنه يحمل كل مواصفات الرجولة ويعي معنى كلمة المسئولية، وراحت تخبرها أنها كانت تحلم بأن يكون لديها إخوة صبيان، لكن القدر شاء أن يكون كل أخواتها من الفتيات، وزاد عددهم الآن واحدة وهي إنتي يا أفراح، نعم، من منا لا يحلم أن تكون فتاة بمثل خلقك ومشاعرك وطيبة قلبك أختًا لها.

كانت تلك الكلمات كفيلة بأن تعيد أفراح إلى الواقع مرة أخرى بعد أن كانت منهمرة في البكاء وهي تتذكر أخاها الكبير الذي يتولى رعايتها منذ نعومة أظافرها، تذكرت أول يوم لها في المدرسة عندما أجبرته على أن

يقف أمامها حتى تذهب إلى الفصل ومن ثم لم يحضر هو أول يوم له في المدرسة، تذكرت كيف كان يقتطع من مصروفه لكي يوفر لها ما تريده، تذكرت كل الأيام الجميلة التي جمعتهما سوياً، وذلك اليوم الذي غادر فيه المنزل بحثاً عن رزقه في مكانٍ آخر، وكيف تولى إدريس أخوها مسئوليته بعده، وما هو شعوره به طوال فترة سفره، وأول لقاء بينهما بعد أن عاد من العمل في أول إجازة له، وأخيراً ذلك اليوم الذي اصطحبها فيه وجلب لها كل ما يلزمها من متطلبات الحياة الجديدة التي سوف تعيشها، وكلماته لها، ورغبته عن الفخر بها كلما نجحت، ومواقفه التي كان يقوم بها مع والدها، إنه حقاً رجل بمعنى الكلمة.

عادت أفراح من ذلك كله إلى أرض الواقع لتجد صديقتها الوحيدة بداخل الجامعة شاردة هي الأخرى في حياة أخيها الكبير، ولكي تنهي هذا الأمر طلبت منها أن يتوجها لشراء كارت شحن للهاتف حتى تتمكن أفراح من الاتصال بوالدتها وتطمئنها على حالها، وبالفعل حدث وأخبرتها بتلك المكالمة التي درات بينها وبين أخيها إسماعيل وطمأنتها على حاله وأحواله، وأخبرتها أنها سوف تنتهي من المحاضرة وتعود إلى المنزل مباشرة.

هكذا كان حال أفراح في أول سنة لها بالجامعة، تجلس بعض الوقت مع صديقتها سما، وبعض الفتيات دون أن تختلط بالشباب نهائياً كما عاهدت أخاها الكبير، وبين المحاضرة والأخرى تقوم بالاتصال بوالدتها لكي تطمئنها على أحوالها وتخبرها بالوقت المتبقي لها على العودة للمنزل،

وتعود مباشرة بعد أن تنتهي من دراستها إلى المنزل، تتناول طعامها مع والديها وأخيها إدريس الذي أنهى فترة تجنيده مؤخراً، إلى أن جاء موعد الامتحان للسنة النهائية، أغلقت هاتفها طوال وجودها في المنزل، لا تفعل شيئاً إلا المذاكرة، هناك وعد بهدية لا تعلمها في حالة النجاح الباهر، وهناك عهد بأن تكون أفضل فتيات الجامعة دراسياً حتى ترفع رأس أهلها وسط الجميع، وفي النهاية كان لها ما ترغب به، علمت طريق النجاح والتميز، وحصلت على ما تريد.

الفصل الخامس

انتهت أفراح من أداء امتحانات السنة الدراسية الأولى لها في الجامعة، وحصلت على الإجازة، وجاء يوم إعلان النتيجة حسبما أخبرتها صديقتها سما عبر الهاتف المحمول، فبرغم حصول أفراح على إجازتها الصيفية لم تنقطع الاتصالات بينها وبين صديقتها الأقرب لها في الجامعة، كانتا دوماً على اتصال مستمر طول فترة الإجازة إلى أن علمت سما موعد ظهور النتيجة واتفقتا على أن تتقابلا في ذلك اليوم في ذات المكالمة

– على فكرة يا أفراح، النتيجة هتتعلق بكرة في الجامعة.

– بجد، طيب إمتى؟ قصدي يعني الساعة كام؟

– أكيد الصبح، بصي، إحنا نتقابل الساعة 8 نفطر مع بعض علشان إنتي وحشانى جداً وبعد كده نشوف النتيجة.

– لا، إحنا نشوف النتيجة الأول وبعد كده نعمل اللي إنتي عايزاه.

أنهت أفراح مكالمتها مع صديقتها سما، وذهبت تخبر والديها بخبر ظهور النتيجة وتحصل على إذن منهما للذهاب في الصباح إلى الجامعة لكي تحصل

على النتيجة.

لم يمانع الأب في ذلك ولم تدَّخر الأم جهداً في الدعاء لها.

- ربنا ينجحك ويكرمك يا بنتي يا رب واشوفك أحسن الناس.

توجَّهت أفراح إلى غرفتها في محاولة منها لكي تخلد إلى النوم، لكن حالة القلق والتوتر التي أصابتها صنعت حالة من الصراع بداخلها ووضعت أسئلة عديدة في مخيلتها، وحال كل ذلك بينها وبين رغبتها في النوم المبكر بشكل طبيعي.

ومع أول خيط لنهار اليوم المرتقب قامت أفراح من فراشها، توضأت وأدَّت صلاة الفجر ثم ارتدت ملابسها وذهبت إلى الجامعة ترافقها دعوات الأم التي أخذت تودعها بقلق ورجاء من الله أن يكتب لها النجاح والتميز، إلى أن أوصلتها إلى باب المنزل بصحبة والدها الذي سوف يأخذها معه ليقوم بتوصيلها في طريقه أثناء ذهابه إلى عمله.

استقلَّت أفراح تلك السيارة التي سوف تنقلها إلى الجامعة بعد أن أوصلها والدها إلى الموقف الخاص بالميكروباصات ثم توجَّه إلى المستشفى، كانت نبضات قلب أفراح أسرع من تلك السيارة التي تستقلها، يدور في رأسها تساؤلات عديدة وتحدث نفسها.

ترى ماذا ستكون النتيجة، هل أحصد الدرجات النهائية كما أرغب، يااااه إن حدث ذلك سوف أشعر بسعادة لم أشعر بها من قبل، حين ذلك سوف أطلب ما أرغبه وأتمناه ولن يمانعني في تحقيقه وتنفيذه أحد، أظن أن أخي إسماعيل سوف تغمره نفس الدرجة من السعادة والفخر، ما لهذه

السيارة تسير ببطء! أسرع أيها السائق، أود الوصول في طرفة عين، لن أتنازل على أن أكون من العشرة الأوائل على دفعتي، فأنا أجتهد كثيراً، نعم لن يضيع الله مجهودي وسوف أحصل على درجات تجعل أهلي يرفعون رأسهم في القرية بأكملها، وتجعل أخي إسماعيل يتفاخر بي أمام أصدقائه في العمل.

يقطع هذا الحوار صوت السائق الذي يناديها:

- الجامعة يا أبلة ولا مش نازلة؟

- ها، آه معلش لحظة واحدة.

تغادر أفراح السيارة وتتوجَّه نحو الباب الرئيسي للجامعة لكي تلتقي مع صديقتها سما كما كان الاتفاق فيما بينهما، لكن أفراح حينما وصلت لم تجد سما في انتظارها فأخرجت هاتفها المحمول وتحدثت إليها، أخبرتها سما أنها لم يتبق لها على وصولها إلا دقيقتان على أقصى تقدير، كانت المدة المحددة من سما تمر ببطء شديد جداً على أفراح وكأن الدقيقتين بمثابة عامين، وما إن وصلت وتعانقتا إلا وتوجَّهتا إلى داخل الجامعة.

لم تعش أفراح حالة من الرهبة والقلق التي تعيشها الآن من قبل اللهم إلا أول يوم لها في تلك الجامعة، وصلت بها الرهبة إلى أنها خافت أن تتوجَّه نحو اللافتة المعلقة عليها النتيجة فطلبت من سما أن تذهب هي وتحضر النتيجة ثم تخبرها بها.

بالفعل ذهبت سما لكي تحضر نتيجة أفراح، ووسط كم هائل من الطلاب والطالبات استطاعت سما أن تصل إلى تلك اللافتة المعلقة عليها

النتيجة، كانت أفراح تتابع ما يدور حولها في قلق وترقب، هناك حالة من المشاعر المختلفة بين سعادة وحزن، وبين فرحة وانكسار، فيما تشاهد فتاة فقدت وعيها بعد أن حصلت على نتيجتها، يخفق قلبها وتصاب بحالة من الرعب والقلق، وتحاول أن تدير وجهها عنها، فتشاهد أخرى يكسو وجهها السعادة والفرحة فيطمئن قلبها وتهدئه قليلاً وتتمتم ببعض الآيات وتدعو الله أن يرزقها السعادة والفرح من عنده ويكفيها الحزن والهم، أثناء ذلك كانت سما تقوم بنقل نتيجة أفراح في ورقة صغيرة والسعادة تكسو وجهها وما إن انتهت إلا وتوجَّهت مسرعة نحو أفراح التي كانت تراقب تحركاتها في قلق ورهبة كبيرة.

- ها يا سما طمنيني.
- امتياز يا أفراح.
- والله العظيم بجد؟!
- خدي شوفي بنفسك.
- ألف حمد وشكر ليك يا رب.

لم تستطع أفراح أن تتمالك دموعها من شدة الفرحة التي امتلكتها، لقد حقَّقت انتصاراً عظيماً في حربها ضد العادات والتقاليد التي تحتل عقول قريتها الصغيرة وتسيطر على كافة أرجائها، كانت أفراح في تلك اللحظة لا تعلم ماذا تفعل؛ هناك أشياء كثيرة تود أن تقوم بها، الحيرة تملأها؛ هل تتصل بأخيها إسماعيل أولاً؟ أم تتصل بأمها أولاً؟ فهي تريد أن تخبر الدنيا كلها أنها حصلت على درجة الامتياز في كافة المواد الدراسية، أنهت سما

حالة الحيرة التي تتملَّك أفراح عندما طلبت منها أن تذهب وتقوم بجلب نتيجتها لها، بالفعل توجَّهت أفراح لكي تجلب نتيجة سما، لم يستغرق الأمر بضع دقائق ثم عادت إليها لكي تزف لها خبر نجاحها، السعادة تملكت الصديقتين، لقد تجاوزا العام الدراسي بنجاح وسوف تحصلان على إجازة سعيدة تنتهى بعام دراسي جديد.

انتهت لحظات الفرح بظهور النتيجة وجاء وقت مشاركة باقي أفراد الأسرة في فرحة أفراح بالنجاح، كانت الأم أول من تعلم، لم تكن تتوقع أفراح تلك السعادة البالغة التي أصابت الأم حينما علمت بخبر نجاحها، سعادة جعلتها تطلق الزغاريد عبر سماعة الهاتف الأرضي.

- إيه يا أمَّة.. ودني!
- اسكتي يا بت .. سيبيني أفرح وأعرف الدنيا كلها إني فرحانة ببنتي.
- ربنا يفرح قلبك يا ست الكل يا غالية.
- طب يلا بقى تعالي علشان نبل الشربات ونوزعه ع الحتة كلها.
- لا أنا لسة قدامى شوية وبعدين آجي.
- ليه هو إنتي مش جبتي النتيجة خلاص؟
- يا امة أنا لسة على لحم بطني، وبعدين لسة هنشوف نتيجة سما وبعدين نفرح شوية وارجع على البيت على طول.
- إن كان كده ماشي بس ما تتأخريش.
- حاضر يا ست الكل، ربنا ما يحرمني منك يا رب.

أنهت أفراح مكالمتها الأولى، كانت في نفس الوقت سما قد انتهت من

مكالمة والدتها هي الأخرى وأخبرتها بخبر النجاح، واتفقتا على أن تتوجَّها إلى أحد المطاعم الشهيرة لكي تتناولا وجبة الإفطار، كانت السعادة التي تغمر أفراح ليس لها مثيل، إلى أن حان موعد المكالمة الثانية، من وجهة نظر أفراح، إنها أهم مكالمة سوف تجريها في هذا اليوم.

- آلوه، إسماعيل، أنا نجحت!
- بجد يا بت يا أفراح؟!
- آه والنعمة .. وجبت امتياز كمان.
- الله أكبر يا رافعة رأسي.
- إنت هاتيجي إمتى بقى؟
- مستعجلة على الهدية؟
- إنت عندي أكبر وأغلى هدية في الدنيا، إنت وحشتني أوي؟
- إنتي أكتر يا ست البنات.
- طب يالا إرجع بقى.
- إن شاء الله آخر الشهر هاكون في مصر.
- يااااااه، لسة باقي عشرين يوم؟!
- هانت يا ست البنات، وأوعدك إني هاجيب لك أحلى هدية في الدنيا.
- ربنا ما يحرمني منك يا رب، أنا بحبك أوي.

في تلك اللحظة ينقطع الاتصال، لقد نفد رصيدها، ربما أغضبها هذا الأمر بعض الشيء لكن سرعان ما عاود إسماعيل الاتصال بها ليزيح عن صدرها ذلك الغضب الذي لحق به، أخبرته بأنها سوف تتجه مع

صديقتها لتناول طعام الإفطار، رحب بذلك، وسألها عما تبقى معها من الأموال التي قد سبق ووضعها لها في حسابها الخاص، وأخبرها أنه سوف يقوم بإضافة بعض الأموال لها في ذلك الحساب كي تشتري ما ترغب به وتحتفل كيفما تشاء لحين أن يعود لها بتلك الهدية.

اعتادت سما بكاء أفراح بعد كل مكالمة هاتفية بينها وبين أخيها إسماعيل، لدرجة جعلتها تسأل مداعبة:

- هو ده سلو عيلتكم؟!

كانت تلك الكلمات البسيطة كفيلة أن تعيد الفرحة مرة أخرى على وجه أفراح وأخذتا تتبادلان أطراف الحديث والمداعبات فيما بينهما إلى أن وصلتا إلى ذلك المطعم الشهير الذي ستتناولان به طعامهما.

كانت هذه هي المرة الأولى التي تدخل فيها أفراح تلك الأماكن الراقية على حد تعبيرها، فهي وإن كانت تناولت طعامها خارج منزلها لم يتعد ذلك حدود كافتيريا الجامعة، ربما رهبة الأمر اتضحت عليها بعض الشيء فهي لا تعرف النظام أو الأسلوب المتبع في تلك الأماكن، لكن سما تداركت هذا سريعاً وبدأت تخبرها كيف يكون النظام في تلك الأماكن ذات النظام الغربي، حصلت أفراح وسما على طعامهما وتوجهتا نحو إحدى الطاولات وجلستا تتناولان الطعام.

شردت أفراح بخيالها وهي تنظر إلى المارة من خلف الزجاج، كان بداخلها أشياء عديدة تفكر فيها، ما الذي سوف تفعله في الأيام القادمة؟ بل شطح منها تفكيرها إلى الغد البعيد، المستقبل، ماذا سوف تفعل بعد

أن تتخرج من الجامعة؟ هل ستعمل أم ستكتفي بما حققت أم ستكمل دراستها العليا؟ وبدأت تضع شروطاً وقواعد لتلك السنوات الباقية لها في عمر دراستها الجامعية، أهم ما فيها ألا يقل مستواها العلمي، وألا تهبط بدرجاتها العلمية وتظل دوماً في المقدمة حتى تظل رأسها ورأس أسرتها مرفوعة دوماً في السماء بين أهل قريتها، وكذلك المحافظة على سمعتها مع مراعاة عدم الاختلاط نهائياً.

لاحظت سما حالة الشرود التي أصابت صديقتها، فسألتها فيما تفكر، كان صوت سما كفيلا بأن يأتي بأفراح من عالمها الخيالي إلى تلك الطاولة مجدداً وهي تجيب على صديقتها الوحيدة: لا شيء .

لم تقنع تلك الإجابة المقتضبة سما، فبرغم الفترة القصيرة التي صادقت فيها أفراح إلا أنها غاصت بداخل أعماق صديقتها، كانت ملامحها تقول غير ذلك، لكن سما لا تريد إفساد فرحة النجاح على صديقتها أفراح، انتهتا من تناول طعامهما وذهبتا إلى حيث موقف السيارات بعد أن ترجلتا لقليل من الوقت وسط شوارع المدينة وهناك، توجهت كل منهما إلى منزلها، وبداخل السيارة كانت أفراح تحمل بداخلها تساؤلات عديدة، ترى ماذا سوف يحدث في الغد القريب؟ ما رد فعل أهل القرية؟ هل سيكافئني أبي مثلما سيفعل أخي إسماعيل؟ هل انتهت أمي من تحضير الشربات كما أخبرتني؟ وأخي إدريس، متى سيعود من الجيش؟ وما هو رد فعله على نجاحي؟ وهل سيحضر لي هدية هو الآخر أم أنه سيكتفي بأن يبارك لي النجاح؟ أظن أن ظروف إدريس المادية لا تسمح بأن يجلب

لي هدية، فهو لا يزال يؤدي فترة الخدمة العسكرية ويكفي ما هو فيه، متى سوف يحصل على أجازته؟ لقد اشتقت إليه كثيراً وأخشى عليه من تلك الرصاصات الطائشة التي تصوب نحوه هو وزملاؤه في صحراء سيناء، لا أخفي سراً أن قلبي ينقبض كل صباح ومساء خوفاً عليه من غدر هؤلاء الخونة القابعين هناك، لكن هذا قدره ومصيره وعليه أن يواجهه، نعم أخي يحارب الإرهاب ويحميني أنا وأسرتي وأهلي وأبناء قريتي هو وزملاؤه، لذلك لم أطلب منه هدية النجاح بل سيكون نجاحي هو هدية كفاح له، ربما هذا ما أستطيع تقديمه إليه في تلك الظروف الراهنة، فأنا لا أملك إلا الدعاء له هو وباقي أفراد الجيش المصري العظيم.

في تلك اللحظات قطع صوت السائق حالة الشرود التي تتملكها منادياً.

- الآخر يا ست البنات.

- ها، شكراً يا أسطى.

- مع ألف سلامة.

- ربنا يخليك.

غادرت أفراح السيارة مترجلة نحو المنزل، كانت تراقب بعينيها نظرات أهالي قريتها إليها، من لا يعرفها ينظر لها وكأنه شخصية عامة يشاهدونها عبر شاشات التلفاز فقط، أما من يعرفها فما إن يشاهدها إلا ويتوجَّه لها بالتهنئة.

- ألف مبروك يا أفراح.

- الله يبارك فيكي يا خالتي.

- مبروك يا أفراح.
- الله يبارك فيكي يا عمتي.
- ألف مبروك يا أفراح عقبال الشهادة الكبيرة.
- الله يخليك يا عمي.

هكذا كان الحال أثناء رحلة عودتها إلى المنزل، سعادة غامرة حملتها من على الأرض وراحت تحلق بها في السماء كالطير الذي يغرد منفرداً، أدركت أن الأم لم تخف خبراً وقامت بما يجب أن تقوم به أي أم في مكانها، ذهبت توزع الشربات حلاوة نجاح ابنتها الوحيدة التي التحقت بالجامعة في سابقة تكاد تكون هي الأولى من نوعها في تلك القرية التي تعيش بها أفراح، وما إن وصلت إلى المنزل إلا وقابلتها الأم بالزغاريد، أخذتها بين ذراعيها كالعائدة من رحلة سفر، أو كبطل عالمي حقق إنجازاً لم يسبق له مثيل، نفس الشعور كان يحمله الأب بين ضلوعه إلى ابنته، كانوا جميعاً في انتظارها، لكن الأب الذي يكد ويتعب من أجلها حينما رآها دون أن يدري تساقطت دمعات عينيه منه، هنا أحست أفراح بمدى العبء الذي كان يحمله الأب، مدى التحدي الذي خاضه عندما طاوعها في تحقيق رغباتها، فما كان أمامها إلا أن مالت على يد الأب وقبلتها في حب ورضا، نعم، لقد أنجب بنتاً وعلمها كيف تكون حسنة الأخلاق، ووقف بجانبها عندما حلمت أن تصبح ذات شخصية فريدة بين أهالي قريتها، لم ينظر الأب إلى حالة فقره، أو إلى تلك العادات والتقاليد التي تحكم هذه القرية، نعم، لقد كسر الرجل كل القيود وحطم كل الحواجز من أجل حلم

ابنته الوحيدة، ربما كان لإسماعيل دور في ذلك لكونه من تحمل نفقات تعليمها، بل وإن دققت الوصف، لقد تحمل عبء حياتها بشكل كامل، وكأنه هو ولي أمرها، لم يبخل عليها يوماً بشيء، بل وفر لها ما لم تكن تتخيل يوماً أن يصبح ملكاً لها، أصبحت تمتلك هاتفاً محمولاً لم تتخيل يوماً أنها سوف تحمله لا لشيء، فقط لمجرد أنه ليس ذا أهمية لديها ولا حاجة له في حياتها، لكن اختلف الأمر حينما التحقت بالجامعة، أصبحت تمتلك أرقى الملابس كأي فتاة تعيش في المدن المتحضرة، بل أصبحت ترتدي أفضل منهن جميعاً بفضل أخيها الذي ذهب إلى تلك البلد العربية وشاهد مدى التحضر الذي طال المرأة في مجتمعاتنا العربية، ربما تحملت بعض الانتقادات في بداية الأمر، لكنها اليوم عادت إلى أهل القرية رافعة رأسها ورأس أسرتها جميعاً وسط الجميع.

وفي مساء ذلك اليوم بعد أن انتهوا من الاحتفال وقبل أن يخلدوا إلى النوم، دق باب المنزل، لم يعتادوا سماع دقاته في هذا الوقت المتأخِّر من الليل، توجه الأب لكي يفتح للطارق، وما إن فتح إلا وشاهد إدريس أمامه، يا لها من سعادة لا توصف! لقد مر وقت كبير على إدريس خارج المنزل، حاله حال أخيه إسماعيل، إنه بالفعل يوم يحمل السعادة على أهل هذه الدار، كل أحداثه سارة، وتدعو إلى الفخر بداخل نفس الأب، هذا هو ولده الذي صار رجلاً يرتدي ملابس الجيش، حاملاً على كتفه حقيبته، يقف أمامه رجلاً قوياً بكامل عافيته، فتح الأب ذراعه له لكي يرتمي إدريس في حضن أبيه الذي أنجبه ويقبل يده.

- إدريس.
- إزي صحتك يا حاج.
- أنا بخير، حمدالله بالسلامة يا واد.
- الله يسلمك يا حاج.

كانت الأم والأخت في انتظار معرفه منْ الطارق، وما إن سمعوا صوت إدريس إلا وذهبوا مسرعين نحوه، فقد طال غيابه عن المنزل لمدة تزيد عن ثلاثة أشهر نظراً للظروف التي تمر بها البلاد، راحوا يرتمون في أحضان رجلهم الغائب العائد، وذهب إدريس يقبل يد أمه ورأس أخته الصغيرة، وبعد أن انتهوا من حفلة الاستقبال توجَّه إدريس إلى داخل غرفته لكي يستبدل ملابسه بينما توجهت أفراح مع الأم لكي تقوما بتحضير الطعام لإدريس، ولحين أن ينتهيا من ذلك، جلس إدريس مع والده لكي يطمئن على أحواله وأحوال زملائه في حربهم ضد الإرهاب على أرض مصرنا الغالية سيناء، ويعرف منه سبب تأخره هذه المرة في حصوله على الإجازة، راح إدريس يحكي لأبيه عن إنجازاته مع زملائه في حربهم ضد الإرهاب، ومدى حب القائد لهم نظراً لشجاعتهم وبسالتهم في مواجهة أعداء الوطن، قطع هذا الحديث الوطني الشيق دخول أفراح مع الأم حاملة بين يديها صينية عليها الطعام لأخيها الذي تراه بطلاً مقاتلاً من أجل الوطن، تناول إدريس طعامه وذهب الأب والأم إلى غرفتهما لكي يخلدا إلى النوم، فلم يتبق إلا ساعات قليلة على موعد عمل الأب، لذلك يجب أن يستريح قليلاً حتى يستطيع أن يواصل عمله الموكل إليه بداخل المستشفى

خصوصاً أن العمل لديه شيء مقدس وذا مكانة خاصة.

بقيت أفراح مع أخيها إدريس، أحضرت له الشاي لكي يتناوله بعد الانتهاء من تناول طعامه، وأثناء تناول إدريس الشاي أخبرته أنها حصلت على الدرجات النهائية في الجامعة، مما أدخل على قلب إدريس السعادة والسرور، ربما كان إدريس في بداية الأمر لم يهتم بموضوع الجامعة ويرى أن ذهاب أفراح إلى الجامعة شيء ليس له قيمة حسب العادات والتقاليد الموروثة في ذلك الحين، لكن الأمر اختلف تماماً حينما توجه إلى الجيش وتعرف على أشياء كثيرة، بل أصبح لديه أفكار مختلفة بشكل ملحوظ، بل إنه أصبح الآن يطالبها بأن تحقق أعلى الدرجات وتستمر في تلك النجاحات دون النظر إلى العادات والتقاليد، لم تكن أفراح تتوقع أن يتحدث أخوها إليها بهذا التحضر، فهو كان من أشد المعارضين لها أثناء طرح فكرة الالتحاق بالجامعة ولولا إسماعيل ساندها لم تكن لتحقق رغبتها، لكن لا بأس كان ذلك في الماضي، أما الحاضر فهو مختلف تماماً عن ذي قبل، وراحت أفراح تطمئن على حال أخيها، لماذا لم يحضر طوال هذه الفترة؟ وما شكل التضحيات التي يقدمها هو وزملاؤه من أجل الوطن؟ كان ذلك السؤال أشبه بالاستفاقة، ككبسولة صراحة تناولها إدريس من يد أخته الصغيرة أفراح.

– هاقول لك .. بس تحلفي ما تقولي لحد.

– في إيه يا إدريس؟ وهو أنا من إمتى بقول لحد أي حاجة إنت بتقول لي عليها؟

- شوفي يا ستي.

وراح يكشف لها عن ساقه اليسرى وهو يسترق النظرات تجاه باب غرفة أبيه، كانت أفراح تنظر إلى ساق أخيها بذهول، فهناك جرح ترك أثراً، وأخبرها أن سبب عدم حصوله على الإجازة هو أنه كان يخضع للعلاج بعد أن أصيب من قبل الإرهابيين في إحدى المداهمات التي كان يقوم بها، لكنه طلب من قائده عدم إخبار أحد من أسرته حتى لا يصابوا بالفزع، كان إدريس يخشى على والديه من هول الخبر خصوصاً وأنهما لم يعرفا حقيقة الأمر مهما حاول أحد أن يوضح لهما أن إصابته بسيطة، سوف يهيئ لهم عقلهم أن حالته خطيرة، وربما يهيئ لأمي أنني على وشك الموت، ولم يستغرق الأمر كثيراً يا أختي تناولت العلاج سريعاً وعلى أعلى مستوى، ومهما حاولت أن أصف لك كم هؤلاء القادة مخلصون لله وللوطن ويعاملوننا كوننا أبناء لهم، لم أستطع أن أفي هؤلاء حقهم! أتعلمين؟ لقد أتى لي القائد العام بنفسه لكي يطمئن على صحتي، وسألني لماذا لا أرغب في أن يعلم أهلي بإصابتي، كان ردي عليه تلقائياً، وهل أنتم لستم بأهلي، فقال لي: بلى، نحن أهلك، فقلت، إذن أنتم علمتم بأنني أصبت فداء للوطن وها أنتم الآن تتابعونني وتسألون عني وترعون صحتي، فلماذا أزعج أبي وأمي دون داع؟ كلها أيام يا سيدي وأعود إلى وحدتي، وسأقاتل من أصابني، وسوف أقتص لروح زملائي، فوالله لن أعود إلى أسرتي الصغيرة قبل أن أقتص لزملائي، حينها رأيت القائد يبتسم بفخر شديد وهو يربت على كتفي قائلاً:

– دوماً هذا الوطن لا ينجب إلا رجالاً صدقوا ما عاهدوا الله عليه، لك ما ترغب وسأتابع حالتك الصحية، وما إن تسترد عافيتك إلا وسأرسل لك لكي أوكل لك مهمة الثأر والقصاص.

وهذا ما كان، اقتصصت لزملائي وثأرت لهم ولي في مهمة تحدَّثت عنها كل وسائل الإعلام في الأيام السابقة، ذلك هو سر تغيبي طوال الثلاثة أشهر الماضية.

الفصل السادس

لم تكن أفراح تتوقع أن يتبدل حال أخيها إدريس بهذا الشكل، لقد تبدل حاله بشكل ملحوظ عن ذي قبل، إنه يتحدث لها بانفتاح وعقلانية كبيرة جداً، لقد تعلم الكثير والكثير داخل وحدته في الجيش، أهم ما تعلمه هو النظرة الشمولية والمنفعة والمصلحة العامة وكيفية تفضيلها على المصلحة الخاصة، وتلك الروح القتالية التي بات عليها، لقد تغير إدريس بشكل كبير لدرجة جعلت أفراح تفتخر به عن ذي قبل، خصوصاً بعدما علمت بما قام به أثناء الفترة الأخيرة التي قضاها في الجيش وما حدث له وما يفعله، شيء يدعو إلى الفخر، لكن لماذا أخفى ذلك عن والده، ولماذا كان يخشى على والدته من خبر إصابته، لا يهم ذلك كله، المهم لدى أفراح الآن إدريس أصبح إنساناً آخر غير الذي اعتادت عليه، بل أصبح أخًا تفتخر به وتعتمد عليه في أمور كثيرة.

مرت الأيام سريعاً، كانت أفراح تقضي كل وقتها على إراحة أخيه إدريس وتلبية طلباته بشكل ملحوظ، لدرجة جعلت الأم تتعجب وتعلق

قائلة:

– غريبة، اللي يشوفك وإنتي مش عايزة تقعدي وتتمني الرضا لأخوكي يرضى ما يشوفكيش وإنتي قاعدة لوحدك وعايزة الكل يخدم عليكي.

– جرى إيه يا أمه هو إدريس معانا كل يوم، دأنا ما صدقت إنه ينزل أجازة، كان واحشني جداً.

– سبحان الله مع أنكم كنتم ناقر ونقير.

– الدنيا بتتغير يا ست الكل وكل يوم بنعيشه عقلنا بيكبر ومخنا بيفهم الأصول وبيميز الصح من الغلط، مش كده ولا إيه؟

– كده يا بنت بطني.

كان روح المداعبة والسعادة تملأ أرجاء المنزل الصغير في كل أوقاته، يستيقظ أفراد الأسرة في الصباح، يتناولون طعام الإفطار، يتسامرون ويقومون ببعض الأعمال البسيطة إلى أن يأتي الأب من عمله، يتناولون طعام الغداء سوياً، يخرج إدريس بعض الوقت في المساء يجالس أبناء قريته ثم يعود ليتناول طعام العشاء ويتسامر مع أخته أفراح بعض الوقت ويخلدون إلى النوم، إلى أن جاء اليوم الذي لم ينم فيه أحد داخل هذا المنزل.

في ذلك اليوم كان كل شيء يسير من بدايته بشكل طبيعي للغاية، أهل المنزل يفعلون ما يفعلونه كل صباح، حتى إن دخل المساء تبدل الحال لأسعد حال، حتى طرقات باب المنزل كانت أشبه بالطرقات الراقصة على الخشبة، مما دفع إدريس أن يتوجه نحو الباب متعجباً لكي يفتح لذلك الطارق السعيد الذي يكاد أن يرقص هو الآخر على أنغام دقاته

أعلى الباب، وما إن فتح إدريس الباب إلا ووجد أمامه الأخ الأكبر، إسماعيل قد عاد إلى منزله، أخذ إدريس يصرخ وهو يحتضن أخاه الأكبر بشكل هستيري:

- أخويا إسماعيل رجع، أخويا إسماعيل رجع.

كانت تلك الكلمات كفيلة بأن تجعل كل من في المنزل يركض تجاه الباب، أصبح إسماعيل كنقطة العسل التي تساقطت من فم طفل صغير كان يتناول طعامه وما إن رآها النمل إلا وتزاحم عليها لكي يأخذ حقه فيها ويشبع جوعه، أما أفراد الأسرة بالنسبة إلى إسماعيل كانوا بمثابة قدر الماء الذي يبحث عنه الظمآن في وسط الصحراء، إنه مشهد كاد أن ينتهي من الذاكرة، فكم من مشتاق في هذه الدنيا يخفي ما بداخله من أشواق! وكم من عائد لدياره وحنين الطين يسير بين عروقه! ويا لها من لحظات تحمل معانٍ كادت تموت بداخلنا من كثرة الفراق!

الجميع يقبل إسماعيل وهو يبادلهم العناق والقبلات لدرجة جعلته يركع على ركبتيه ويقبل أقدام الأم والأب في مشهد يكاد أن يصبح معدوماً في تلك الأيام، وكان ذلك رد فعل طبيعيًا من إسماعيل عندما شاهد دموع والده الرجل الذي جعل منه رجلاً، وتلك الأم التي ارتوى منها الحنان ولها بداخله فضل ومعزة خاصة، فهما بالنسبة له المعنى الحقيقي لتلك الحياة التي يعيشها، فلولا هما ما كان هو، فهو الآن لا يرى عيبًا في أن يميل على قدم أحدهما ويقبله، بل إن ذلك الأمر مجرد تقدير منه واعتراف بالجميل والفضل ليس أكثر.

توجهوا إلى الداخل وقبل أن يغلقوا باب المنزل عليهم كان أهل القرية قد أتوا لكي يتأكدوا مما نقلته إليهم أسماعهم، هل حقاً عاد إسماعيل لداره، نعم لقد عاد، الجميع يبادله التهنئة بسلامة الوصول إلى أرض الوطن وإلى قريته، الذي يتبادل مع أهلها كل الحب والاحترام، إن لإسماعيل مكانة خاصة جداً لدى أهل قريته، فهو محبوب من الجميع، الجميع يشاهد صورة الرجل الكبير الذي يفرض احترامه على الصغير منهم قبل الكبير برغم صغر سنه، ويعود ذلك إلى حسن تربية إسماعيل وأدبه وأخلاقه التي كانت بمثابة قدوة لكل أبناء جيله من أهل القرية والأجيال التي تليه.

انتهى إسماعيل من استقبال مهنئيه من أهل القرية وغادروا المنزل وأغلق الباب على تلك الأسرة الصغيرة في حالة من السعادة الغامرة، كانت الأم في تلك اللحظات قد انتهت من تحضير الطعام لابنها إسماعيل بمساعدة أفراح التي لم تكل ولم تمل في خدمة أخيها الأكبر الذي يمثل لها أشياء كثيرة، لدرجة كادت أن تجعلها تطعمه بيدها حتى لا تجعله يبذل مجهوداً في إطعام نفسه، وكانت الأم تتنافس معها على ذلك، أما الأب الذي جلس أمامه ابنه الأكبر يتابعه في فخر، شرد بتفكيره وراح يحدث نفسه:

- تعرف يا واد يا إسماعيل، على قد ما أنا فخور بيك على قد ما أنا مكسوف من نفسي منك، آه مكسوف من نفسي منك بجد، أنا ما اقدرش أساعدك وأقف جنبك علشان تحقق أحلامك، ومع ده كله إنت النهارده اللي جاي تقف جنبي وتساعدني علشان أحقق أحلام إخواتك، لأ وإيه، بتوطي على رجلي تبوسها كمان، أمال بقى لو كنت وقفت جنبك وعلمتك

ودخلتك الجامعة كنت هتعمل إيه، هتشلني على رأسك، يادي الخيبة اللي أنا فيها يا ولاد، طب أرد جميلك ده إزاي بس، أنا والله عملت كل اللي ربنا قدرني عليه معاك بس هاعمل إيه يا ابني، الإيد قصيرة والعين بصيرة، سامحني يا ابني، قدرك كده، أبوك يطلع مغسل ومش ضامن جنة.

في تلك اللحظات ينظر له إسماعيل ويلاحظ حالة شروده وتلك الدموع الحبيسة داخل عينيه فيتوقف عن تناول طعامه ويتركه ويقف متوجهاً نحو الأب:

- تعالى يا أبا عايزك في حاجة ضروري.

- خير يا ابني في إيه.

- تعالى بس، هات إيدك، قوم معايا.

يمسك إسماعيل بيد والده ويتوجه به نحو إحدى الغرف ويغلق الباب خلفه، ليفتح باب التساؤلات بداخل بقية أفراد الأسرة، ترى ماذا يريد إسماعيل من والده؟ يبدو أنه أمر هام لدرجة جعلته يترك طعامه ويقوم ليخبر الأب عما يدور بداخله، عموماً من حق إسماعيل أن يخفي عنهم ما يريد أن يخبر والده به، فكل منا له أسراره الشخصية ويحق له أن يختار الشخص الذي يخبره بهذا السر أو ذاك، كان هذا الحوار القصير يدور بداخل إدريس الذي لفت انتباهه ما حدث مثله مثل بقية أفراد الأسرة، لكن كل واحد منهم شاهد الأمر بأسلوب مختلف حسب وجهة نظره وطريقة تفكيره، فالأم مثلاً جال بخاطرها أن إسماعيل سوف يفاتح والده في موضوع الزواج، ربما أتى من عمله لكي يتزوج بعد أن فتح

الله عليه من أوسع الأبواب وإنه الآن يستطيع أن يصاهر أي عائلة من العائلات الكبيرة على مستوى المركز بأكمله وليس على مستوى القرية أو القرى المحيطة، ربما تطرق تفكير الأم فيما حدث بهذا الشكل لأنها كانت تتحدث منذ فترة قصيرة مع زوجها عن هذا الموضوع بذلك الأسلوب والمنهج الفكري، أما أفراح فذهبت تستنتج هي الأخرى ما يدور بداخل تلك الحجرة المغلقة، ترى ماذا يريد إسماعيل من أبي؟ ربما سيخبره بأمر التحويلات المالية التي قام بتحويلها لي، لا أظن ذلك فإن كان يريد فعل ذلك لفعله من البداية، فكيف يطلب منى عدم إخبار أحد بالأمر، وخصوصاً والدي ثم يذهب هو الآن ويفعل ذلك، يجب أن أترك ما يدور بداخل الغرفة إلى أصحابه، كل ما يهمني الآن أن ينتهي الأمر سريعاً لأني أود أن أعرف الهدية التي وعدني بها إسماعيل، ترى ماذا تكون؟ وهل أتى بها معه من تلك الدولة التي يعمل بها، أم أنه قام بشرائها من هنا، وهل اشتراها أم لم يشترها بعد؟ كل ذلك كان يدور بمخيلتها، حالها حال بقية أفراد أسرتها.

أما في داخل الغرفة فكان لإسماعيل رأي مختلف تماماً عما كان يتوقعه أفراد أسرته، لقد استشعر ما يدور بداخل الأب وأحس بتلك الكلمات التي كان يوجهها إليه دون أن ينطق بها، فأراد أن يخفف العبء عليه، وراح يتحدث إليه بحكمة تكبر عمره بسنوات، قائلاً:

- أراك يا أبى تحمل فوق رأسك هموم الدنيا وتجلد روحك بكلمات وكأنك مذنب في حقي، ولا أريد أن أستمع إلى أي دفاع منك، بل أريد

أن تستمع لي، فأنا لا أخبرك إلا الحقيقة التي يجب أن ينصت لها عقلك قبل قلبك، أنت لم تخذل طموحاتي يوماً عندما كنت صغيراً بل ساندتني بقوة لم يحدث لرجل في تلك القرية أن قام بها، نعم، لقد تعلمت كل شيء في هذه الدنيا على يدك أنت، تعلمت الصلاة وطاعة الله، تعلمت أن أتقي الله في عملي وأن أكون مخلصاً، تعلمت منك ما لم أتعلمه من أحد غيرك، الرضا والقناعة وحب الناس، كنت تبكيني وأنا أتناول طعامي، لماذا يا أبي، لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، إياك أن تشعر بالتقصير تجاهي فتكون ظالماً لنفسك، وأنا لا أحب أن أرى الرجل الذي تعلمت منه العدل أن يكون ظالماً لنفسه، ارفع رأسك يا أبي ولا تحزن، لقد رزقك الله بخير الدنيا وعوضك عن رضاك رزقاً واسعاً، فأنا رزق من الله لك، ومالي جزء مني لك، فلا تشعر ولو للحظة أنك لم تكن على قدر المسئولية تجاهي، بل افتخر بنفسك وبي، أنا ولدك، من نسلك، أنت من علمني أن أصبح رجلاً يعتمد على نفسه ويكافح من أجل إثبات الذات، وها أنا اليوم أمامك، بعد أن حققت النجاح والذات، أقف منحنياً لك تعبيراً عن اعتزازي بما علمتني، أنا يا أبي ثمرة إخلاصك لله.

لم يجد الأب في تلك اللحظات إلا أن يبتسم بفخر، لقد أزالت تلك الكلمات جبلاً من الثلج راقداً على صدر الأب، وكأن إسماعيل هذه المرة جاء لكي يعوض الجميع سنوات الشقاء، فها هو يخبر والده بنيته إقامة مشروع تجاري لكي يدر عليهم بعض الأموال التي تساعد في المعيشة،

وسوف يتركه لأخيه إدريس حتى يعمل به بعد أن ينتهي من فترة تجنيده التي شارفت على الانتهاء، وفي نفس الوقت يكون عوناً في تجهيز نفقات زواج إدريس إن أراد واحتمال زواج أفراح في الفترة القادمة، ويغنيهم عن السؤال وقت الحاجة، كان الأمر بالنسبة للأب شيئاً مفرحاً للغاية، لكن لماذا فكر إسماعيل في إخوته ولا يفكر في نفسه؟ لماذا لا يفتتح هو المشروع ويقوم على إدارته؟ كان ذلك سؤال الأب لابنه الذي أخبره بالسر السعيد، لقد اجتهد إسماعيل في عمله في تلك الدولة التي كان يعمل بها، لاحظ تميزه أحد رجال الأعمال من أهل هذه الدولة وطلب منه أن يشاركه في أحد المشروعات الكبيرة هناك، وكانت تلك هي الفرصة التي يجب أن يغتنمها إسماعيل ليعوض سنوات الضيق التي مر بها هو وأسرته، ويحقق ذاته خصوصاً أن تلك الشركة تعمل في مجال المقاولات والبناء التي يتميز إسماعيل فيها بشكل ملحوظ، كاد الأب أن يطير من السعادة عندما سمع ذلك الخبر، وبلغ قمة سعادته عندما أخبره إسماعيل عن تلك الأمنية التي عاد اليوم ليحققها، إنه المسجد الصغير الخاص بالقرية، كانت أمنية إسماعيل أن يجعله كبيراً وخصوصاً عندما شاهد المساجد في الخارج وكيف يهتم بها من أعطاهم الله من رزقه، وبالفعل جاء اليوم ليحقق ما تمنى ويجعل من مسجد قريته تحفة معمارية جديدة، ليس ذلك فحسب، بل طلب من والده أن يتأهب هو ووالدته لكي يذهبا إلى الأراضي المقدسة لأداء فريضة الحج هذا العام وبعد أشهر معدودة.

انتهى النقاش بداخل الغرفة المغلقة وخرج إسماعيل تاركاً الأب يتأهب

لكي يخلد إلى النوم وهو في غاية السعادة، لم يكن يتخيل يوماً أن يتبدل حاله إلى أفضل حال بهذه الصورة الجميلة، كان أجمل ما سمع الأب من ابنه تلك البشرى التي زفها إليه، رحلة الحج، كانت أمنية غالية على نفسه وها هو الله يحقق ما تمنى والفضل يعود إلى ذلك الابن الصالح الذي أتى من الخارج ليدخل السعادة والسرور على قلبه، بل على قلب أهل القرية كلها، فكم تمنوا أن يجددوا هذا المسجد الصغير الذي يؤدون به الصلاة، ترى ما هو كم الدعوات التي سوف ينالها إسماعيل من أهل القرية عندما يعرفون ما سيقدم على فعله، كانت آخر الكلمات التي نطقها الأب قبل أن تدخل عليه زوجته هي الحمد لله:

- خير يا أبو إسماعيل، إسماعيل قال لي إنك عايزني.

- تعالى يا حاجة.

- حاجة، يسمع من بقك ربنا يا اخويا.

- سمع، سمع واستجاب يا أم إسماعيل.

- بتقول إيه؟

- زي ما إنتي سمعتي كده، إسماعيل الله يبارك فيه هايطلعنا الحج أنا وإنتي السنة دي.

- الله أكبر، يا ما انت كريم يا رب.

لم يكن أحد من الأبناء يعلم سر زغاريد الأم إلا إسماعيل الذي يجلس بينهم يبتسم بينما هم ينظرون لبعضهم البعض ويتساءلون عن سر ذلك، فأخبرهم إسماعيل بالأمر، كما أخبر أخاه إدريس بأنهم في الصباح سوف

يعقدون لقاءات كثيرة مع أهالي القرية ويريد أن يخلد إلى النوم حتى يستيقظ مبكراً، امتثل إدريس لأمر أخيه الأكبر دون أن يعرف ماذا سيفعل في الصباح وذهب إلى غرفته لكي يخلد إلى النوم، أما أفراح فانتهزت الفرصة لكي تختلي بأخيها الأكبر وتستفسر منه عن تلك الأحداث الكثيرة التي تحدث من حولها ولا تعلمها، فهي تعلم أن مكانتها لدى إسماعيل تسمح لها بالسؤال والمناقشة للمعرفة، فأخبرها بما ينوي فعله في الصباح، مما زاد حالة الحب التي تربط أفراح بأخيها الأكبر الذي أصبح رمزاً لها في كل شيء، مثلاً حياً أمام عينيها يتجسد في النجاح وإنكار الذات وحب الآخرين، حاولت أفراح أن تعبر بالكلمات عما يدور بداخلها تجاه أخيها لكن أي الكلمات هذه التي تستطيع أن تصف مصدر سعادتها وسر نجاحاتها، وأشياء كثيرة أخرى تحملها أفراح بداخلها تجاه إسماعيل، استشعرها هو وأعفاها من عبء جمع الحروف وترتيب الكلمات التي تعبر عما بداخلها تجاهه بأسلوب ذكي للغاية ومعبر بكل صدق، فقط قام وقبل جبهتها وربت برفق على كتفها، ثم أخرج تلك الهدية التي لم تكن تحلم بها، علبة بداخلها بعض المشغولات الذهبية، نعم، لم تكن أفراح تحلم يوماً ما أن تقتني هذا الكم الهائل من المشغولات الذهبية، عانقته بحرارة وطلب منها أن تتوجه إلى غرفتها وتخلد للنوم فغداً لديهم عمل شاق ويجب أن تتأهب إليه بكل ما بها من قوة.

في صباح اليوم التالي استيقظ أهل المنزل جميعاً مبكراً، لم يذهب الوالد إلى عمله لأنه يوم عطلة رسمية، بدأ إسماعيل اليوم مبكراً كما اعتاد العيش في

حياته بتلك الدولة التي يعمل بها في الخارج، تناولوا طعام الإفطار وما إن انتهوا إلا وبدأ في توزيع المهام عليهم، أخبر أمه وأخته أن يقوموا بتوزيع تلك الهدايا الرمزية التي جلبها معه على أبناء القرية، لم ينس أحدًا وكأنه كان يحمل بين يديه كشفًا بأسماء أبناء قريته حينما قام بشراء تلك الهدايا المتمثلة في بعض الملابس وما شابه، أما الأب فقد قام بمهمة أخرى، تلك الأرض التي سوف يقيم عليها مشروعة سوف يذهب لكي يتفاوض مع مالكها ويشتريها، أما هو وأخوه إدريس فسوف يتوجهان إلى مكتب أحد المقاولين المشهورين في مجال البناء بالمركز للتعاقد معه على ترميم وتوسيع مسجد القرية، ويعرض عليه إسماعيل ذلك التصميم المعماري الذي قام بجلبه معه بعد أن طلب من أحد المهندسين الذين يعملون معه في الشركة التي يمتلكها هناك لكي يقوم ذلك المقاول بتنفيذه، ثم يتوجهان إلى أحد مخازن مواد البناء ويقومان بشراء ما يتطلبه المسجد من مواد، على أن ينتهوا من ذلك كله بعد صلاة الظهر، في ذلك التوقيت يكون والدهما قد انتهى من أمر أرض المشروع وجمع أهالي القرية بالمسجد لكي يخبرهم بأمر توسيع المسجد وبنائه على أحدث الطرازات المعمارية.

وأثناء رحلة إسماعيل وأخيه إدريس في المدينة لتنفيذ المهام المكلفين بها، طرح إدريس على أخيه الأكبر سؤالاً، لماذا كل هذا يا أخي؟ فأجابه: حلم وقد أراد الله أن يتحقق، والمال كان مجرد وسيلة، واعلم يا أخي جميعنا مصيرنا تلك الأرض التي تدوسها أقدامنا الآن، ترى ماذا ترغب أن تسمع روحك حينما يدفن جسدك في التراب، الله يرحمه كان ابن حلال

ولّا الله يرحمه ريح واستريح، تلك هي المعادلة التي يجب أن تتوصل إليها يا أخي العزيز.

لم يتخيل إدريس أن تكون تلك هي الاجابة، يا لها من حكمة أكبر بكثير من سن أخيه الذي يتعلم منه الآن ما لم ولن يتعلمه من قبل ولا بعد، أدرك إدريس في تلك اللحظات أنه زائل مثله مثل بقية خلق الله ولن يبقى على وجه تلك الدنيا إلا وجه الله، أدرك إدريس الحكمة من أخيه لتكتمل بداخله حالة التغيير الشاملة التي أصبح عليها منذ أن التحق بالقوات المسلحة، أخبره بما حدث له أثناء مواجهته لتلك العصابات الإرهابية، وكيف أصبح لا يهاب الموت، بل إنه يقاتل على حق من أجل الله والوطن والشعب ولا أحد غيرهم، بدأ يدرك إسماعيل أن إدريس أصبح رجلاً يعتمد عليه، انتهيا من تلك المهام المكلفين بها ثم عادا إلى المسجد ليلتقيا والدهم مع كبراء أهل القرية، هنا طلب إسماعيل من والده التحدث إلى الناس ليخبرهم عما ينتوي فعله بالمسجد، فتحدث الأب قائلاً:

- سلام عليكم، معليش سامحوني لو كنت عطلتكم عن مصالحكم وأشغالكم، بس الموضوع اللي أنا عايزكم فيه خير لينا كلنا وربنا يجعله في ميزان حسناتنا، لحد كده ما أقدرش أقول ولا كلمة .. بس هاستسمحكم تسمعوا الخبر الحلو ده من صاحبه، ابني إسماعيل.

في تلك اللحظات نظر إسماعيل إلى والده مبتسماً والفخر يتملكه ثم تحدث إلى أهل القرية قائلاً:

- سلام عليكم، أنا آسف إني أتاخرت عليكم بس والله غصب عني

.. وزي ما ابويا قال لكم إن الموضوع اللي أنا جمعتكم علشانه فيه خير لينا كلنا، ربنا بيقول، بسم الله الرحمن الرحيم: (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر).. وأنا واحد منكم، يمكن يكون اسمى إسماعيل سعيد، بس أنا ابن كل راجل فيكم وأخ لكل واحد فيكم، والحمد لله ربنا فتحها عليَّ من وسع، وربنا بيقول: (وأما بنعمة ربك فحدث).. والجامع اللي احنا قاعدين فيه دلوقت له فضل كبير أوي عليَ، ومشايخ أفاضل قدامى علموني كتاب الله وسُنة سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام بين حيطان الجامع ده، علشان كده لازم نخلى الجامع ده من أفضل بيوت الله في المحافظة كلها، ومش بطلب من واحد فيكم يحط جنيه، بفضل الله أنا متكفل بكل جنيه هيتصرف على الجامع، أنا كل اللي بطلبه منكم إنكم تأذنوا لي إني أجدده وأخليه أفضل بيوت الله في المحافظة كلها.

لقي حديث إسماعيل ترحيباً كبيراً من أهل قريته ودعا الجلوس جميعاً له بالخير وسعة الرزق، وبدأ العمل في الحال.

لقد اختار إسماعيل أربح أنواع التجارة، إنها التجارة مع الله من أجل كسب رضا الله.

الفصل السابع

انتهت الأجازة التي حصل عليها إدريس ويجب أن يعود إلى وحدته العسكرية في الصباح، وقبل أن يغادر منزله جمعته جلسة مغلقة بينه وبين أخيه الأكبر، أخبره فيها بما ينتوي أن يفعله من أجله، وتحدث معه عن ذلك المشروع الذي سوف يتولى إدارته ومدى أهمية هذا المشروع بالنسبة للعائلة وله خصيصاً، تقبل إدريس الأمر من أخيه الأكبر بسعة صدر وبحب لا يوصف وفي الصباح ذهب إلى وحدته العسكرية لكي يستكمل مهمته الوطنية، بينما إسماعيل كان يتابع بناء المسجد وتساعده في ذلك أخته الصغيرة أفراح التي تتولى إعداد الطعام إلى العمال الذين يقومون بأعمال البناء، على الجانب الآخر كان إسماعيل يقوم بإنهاء إجراءات سفر الأب والأم إلى الأراضي المقدسة لكي يؤدوا فريضة الحج التي أوشكت على القدوم، وبرغم ذلك كله كان يتابع يومياً أعمال الشركة في تلك الدولة الخليجية التي كان يمتلكها مع شريكه رجل الأعمال الخليجي الذي يتواصل معه من خلال الهاتف الجوال أو من خلال الإنترنت الذي

قام بتوصيله إلى المنزل، ربما كانت أفراح من أكثر المستفيدين من الإنترنت في المنزل، لأنه يمثل لها نقله تكنولوجية مهمة في حياتها.

مرت الأيام سريعاً وغادر الأب والأم إلى الأراضي المقدسة وبدأت الدراسة الجامعية والتحقت أفراح بجامعتها، وظل إسماعيل يتولى رعايتها في ظل غياب الأب والأم عن المنزل ويتابع أعمال بناء المسجد التي شارفت على الانتهاء، وقد حصل إدريس على أجازته وعاد إلى القرية وقام بمساعدة أخيه في الأعمال التي يقوم بها وتولى هو متابعة عمليات إنشاء المشروع الخاص، كانت أفراح في تلك الفترة تذهب إلى جامعتها وتتلقى محاضراتها وتعود مسرعة لكي تستطيع أن تقوم بأعمال المنزل وتحضير الطعام لإخوتها، أما سما فكانت تحلم بأن تلتقي ذلك الرجل الذي تسمع عنه منذ ما يقرب من عام مضى إلى أن جاءت الفرصة وذهبت مع أفراح إلى منزلها بعد أن حصلت على إذن من والدها ووالدتها بأن تنهي يومها الدراسي وتذهب مع أفراح إلى منزلها تجلس معها بعض الوقت، كان يوماً مشهوداً في حياة سما، فمنذ البداية وقبل أن تخرج من منزلها أخذت وقتاً كبيراً على غير عادتها تقف أمام المرآة، بدلت ملابسها أكثر من مرة إلى أن استقرت على تلك الملابس التي ترتديها الآن، سعادة بالغة كانت تمتلكها أثناء توجهها إلى الجامعة، حدثت أفراح كثيراً أثناء رحلة الذهاب إلى الجامعة على غير عادتها أيضاً، أدركت أفراح ما يدور بخاطر صديقتها، إنها تحب، نعم تلك هي الحقيقة، لم تتوجه سما في ذلك اليوم إلى أي محاضرة من تلك المحاضرات الموجودة في جدول دراستها اليومي، فقط التزمت

بالجلوس في كافتيريا الجامعة في أحد الأركان حتى لا تفقد رونقها، كانت تحافظ على هيئتها بشكل ملحوظ في ذلك اليوم، لدرجة جعلتها تخشى أن تتحرك من مكان جلوسها حتى لا تتَّسخ ملابسها، وكل ما كانت تقوم بفعله هو استعجال أفراح التي تجلس بداخل المدرج لتتلقى محاضراتها.

- إيه يا بنتي إنتي ما دخلتيش محاضراتك ليه؟
- ما ليش مزاج .. المهم إنتي خلصتي؟
- آه.
- طب يلا بينا نمشي بقى.
- أنا مش عارفة إنتي مستعجلة على إيه.
- ها، أصل أنا نفسي أشوف الجامع الجديد اللي أخوكي بيبنيه.
- الجامع برضه؟
- يلا بقى.

يتوجهان إلى خارج الجامعة في خطوات سريعة على غير عادة سما، لا تصافح أحداً لا تهتم بأحد أثناء وداعها، كل ما يجول بخاطرها تلك الملامح التي رسمتها لإسماعيل بداخلها، ترى هل هو كما تتخيل أم عكس ما تخيلت؟ لقد رسمت سما مواصفات له من خلال حديث أفراح عنه معها، وصلا إلى موقف السيارات التي ستقلهم إلى القرية التي تقطنها أفراح، وكلما اقتربت السيارة من القرية وعلمت سما بذلك كلما انقبض قلبها وتملكها الخوف، إنه الحبيب المنتظر الذي أحبته دون أن تراه، أمر شاق للغاية وغير معتاد في تلك الأيام لكنه حدث ولا شك، كانت دقات

قلبها أقوى من أنفاسها التي تتنفسها أثناء سيرها مع أفراح تجاه منزلها، هي دقائق معدودة وترى ذلك الرجل الذي تمنت أن تراه من عام.

بالفعل وصلت أفراح إلى منزلها ومعها صديقتها سما، لم تهدر أفراح وقتاً كثيراً فهناك مسئوليات عليها يجب أن تقوم بها، قامت باستبدال ملابسها سريعًا، وبدأت بإعداد الطعام لأخيها الذي ما زال يباشر أعمال التجديد والتوسيع في المسجد، ساعدتها في ذلك سما على استحياء، كانت ما زالت تخشى على هيئتها، ربما كانت تسرق النظرات تجاه باب المنزل وقلبها معلق بتلك الدقات التي تنتظرها من حين إلى آخر في انتظار قدوم إسماعيل، لدرجة جعلتها تسأل مباشرة بعد أن أخذ منها الشوق ما رغب:

- هو إسماعيل مش هييجي يتغدى ولا إيه يا أفراح؟
- لا .. زمانه على وصول .. ما تقلقيش.
- أصل أنا عايزة أشوفه وأسلم عليه قبل ما امشي.
- هاتشوفيه وتسلمي عليه كمان، زمانه جاي.
- طب ما تتصلي بيه .. استعجليه.
- أستعجله، ليه؟
- علشان، علشان الأكل هايبرد.
- الأكل برضه اللي هايبرد.

ثم باغتتها أفراح بضحكة جعلت سما في غاية خجلها وأنهى تلك الحالة صوت دقات باب المنزل، الذي خطف قلب سما كما خطف سمع أفراح التي توجهت نحوه لكي تفتح، إنه القدر المنتظر، إسماعيل، يا له من شيء

أجمل مما كانت سما تتخيله! يبدو أن له هيبة براقة استشعرتها الفتاة حينما شاهدته أثناء دخوله إلى المنزل، على الجانب الآخر كانت أفراح تمهد له وجود سما في المنزل:

- تعرف مين اللي جت معايا النهارده يا إسماعيل؟

- جت معاكي فين؟

- هنا في البيت.

- هنا في البيت؟ مين؟

- سما صاحبتي اللي كنت بحكي لك عنها.

- والله بجد، ومشيت ليه؟

- لا .. هي لسة موجودة.

- موجودة؟! فين؟

- في المطبخ بتساعدني في تحضير الغداء.

- طب يلا بقى شدوا حيلكم لحسن أنا جعان جداً، هو إدريس ما جاش؟

- لا .. لسة.

تركها إسماعيل متوجهاً إلى داخل غرفته لكي يقوم باستبدال ملابسه حتى ينتهوا من تحضير المائدة، وبالفعل قامت سما بمساعدة أفراح في تحضير المائدة وأثناء ذلك خرج عليهم إسماعيل لتصاب سما بحالة من الخجل الشديد، بينما وقف إسماعيل أمامها ورحب بها:

- إنتي سما؟

- أيوه.
- أهلاً وسهلا بيكي، منورة.
- الله يكرمك، حمد لله بالسلامة.
- الله يسلمك.
- سما يا إسماعيل نفسها تشوف الجامع بعد التجديد.
- بس ده لسه العمال شغالين فيه.
- أصل النهارده اليوم الوحيد اللي كان ينفع آجي وأشوفه بعد ما خدت إذن من والدي.
- إن شاء الله بعد الغدا أبقى آخدك إنتي وأفراح معايا ونعدي ع الجامع وتشوفيه.
- إن شاء الله، عن إذنك.
- إتفضلي، حطي غدا عندك يا أفراح وكلي وأكلي صاحبتك كويس!
- حاضر يا إسماعيل.

في تلك اللحظات وأثناء توجه أفراح وسما نحو غرفة أفراح دق الباب وتوجه إسماعيل لكي يفتح ويجد إدريس أمامه وانتهى من متابعة عمليات بناء المشروع، جلس على المائدة مباشرة بعد أن ألقى السلام على أخيه الأكبر، وأثناء تناوله الطعام سأل عن أخته أفراح فأخبره إسماعيل أنها بداخل غرفتها نظراً لوجود صديقتها بالجامعة معها، تبادلوا النقاش والحوار عن المسجد والعمل به وكذلك المشروع وسير العمل به إلى أن انتهوا من تناول طعامهما، ودون أن ينادي إسماعيل على أفراح قام وأفرغ

بقية الطعام بداخل المطبخ وساعده في ذلك إدريس، وحينما خرجت عليهم أفراح لكي تقوم بذلك العمل وجدت أنهم قد انتهوا منه، فسألت عن سبب قيامهم بذلك، فأجابها إسماعيل إنه أمر عادي بالنسبة لهما، فلقد اعتاد إسماعيل فعل ذلك في الغربة ونفس الشيء اعتاده إدريس في الجيش، وطلب منها أن تقوم بتحضير الشاي لكي يتناوله ويتأهب للعودة مرة أخرى إلى العمال بالمسجد، وبالفعل قامت أفراح بإعداد الشاي وتحضير كوبي عصير لها ولصديقتها لتتناولاه بعد أن تناولا طعام الغداء، وأثناء ذلك تبادلا الحديث حول إسماعيل ومدى حبه للعمل وبعض التفاصيل الأخرى التي كانت تسأل عنها سما وتجيب عليها أفراح.

مر الوقت سريعاً وها هو إسماعيل ينادي أفراح لكي تستعد هي وصديقتها حتى يصطحبهما معه إلى المسجد لكي يحقق رغبة صديقتها في رؤية المسجد، كانت سما تسير بجوار أفراح وإسماعيل في القرية وعيناها تتفقد كل شيء أمامها وكأنها هي المرة الأولى لها التي تشاهد فيها ما تشاهده الآن إلى أن وصلت إلى المسجد ووقفت أمامه في حالة من الذهول، يا له من لوحة فنية على هيئة بناء معماري متميز، لم تستطع أن تخفي إعجابها وانبهارها به:

- الله، أنا أول مرة أشوف جامع بالشكل ده.
- ده لسة ما خلصش.
- ما انا متخيلة شكله لما يخلص ها يبقي إيه.
- إن شاء الله!

- هو أنا ينفع أبص عليه من جوه؟

كان سؤالاً محرجاً، فالعادات والتقاليد تتحكم في بعض الأمور هنا، لكن لا بأس ما دمنا ما زلنا في مرحلة البناء فمن الممكن أن نقوم بذلك، أخذهما إسماعيل إلى داخل المسجد وبدأ يوضح لهما كيف سيكون بعد الانتهاء من عمليات البناء، كانت سما تستمع إلى شرح إسماعيل في سعادة بالغة ربما لأنها كانت تحب أن تستمع إلى صوته يتحدث فقط، انتهوا مما يقومون به داخل المسجد ثم اصطحبهم بعد ذلك إلى موقف السيارات لكي يوصلا سما التي يجب أن تستقل السيارة الآن وتذهب إلى منزلها قبل أن يداهمها الوقت، وبالفعل هذا ما حدث وعادت سما بعد أن قضت يوماً كانت تحلم أن تقضيه منذ عام مضى، وأثناء رحلة العودة كان بداخلها تساؤلات كثيرة، أما على الجانب الآخر كان إسماعيل وأفراح في طريق عودتهما إلى المنزل بعد أن قاموا بتوديع سما ودار حديث مقتضب عن شخصية سما بين إسماعيل وأخته الصغيرة أخبرها فيه أنها شخصية محترمة ومتفتحة وذات خلق رفيع، وأخبرته أفراح أن سما دوماً تسأل عنه وتحب أن تتعرف على معظم تفاصيل حياته، كان يسمع ذلك مندهشاً وحتى لا يخيل له عقله شيئاً لا يرغبه أنهى الحديث عنها سريعاً، وأوصل أخته إلى المنزل، وعاد مجدداً إلى المسجد ليباشر العمل هناك ويجري بعض الاتصالات بعمله في الخارج وأخيه إدريس لكي يباشر بقية الأعمال من خلال الهاتف.

مرت الأيام سريعاً عاد إدريس مجدداً إلى وحدته العسكرية، وبعدها بأيام قليلة عاد الأب والأم من الأراضي المقدسة، وقد شارف العمل في

المسجد على الانتهاء وكذلك المصنع الذي يقوم ببنائه إسماعيل، ذلك الحلم الذي كان يحلم به منذ سنوات طفولته، كان إيقاع الأحداث أسرع من الأيام التي يعيشها إسماعيل في قريته، لقد اعتاد على إيقاع العمل السريع وربما بدأ ينقله إلى أهل قريته والعمال الذين يعملون تحت لوائه إن كان في المسجد أو في المصنع، وبعد أن أنهى الأب فترة أجازته التي حصل عليها لكي يؤدى مناسك الحج، بدأ يتأهب إلى الذهاب لعمله مجدداً، لكن إسماعيل كان له رأي آخر، لقد عملت كثيراً يا أبي من أجل المال، والآن يجب أن تعمل من أجل راحتك فقط، نعم طلب إسماعيل من والده أن ينهي إجراءات معاشه ويكف عن العمل الشاق الذي يقوم به كل يوم، فأخبره والده أنه قد اعتاد على ذلك العمل، لكن إسماعيل كان لديه وظيفة أخرى له، بأسلوبه المتميز والمقنع أخبر والده أنه عليه متابعة التشطيبات النهائية في المسجد لكي يتفرغ هو لشراء معدات المصنع الذي يقوم بإنشائه حتى يتمكن من السفر مجدداً والعودة إلى عمله هناك.

وكان له ما أرد، أنهى العمال التشطيبات النهائية للمسجد ليصبح بالفعل تحفة معمارية وكان الأب شبه مقيم بشكل كامل بالمسجد حتى ينتهي العمال سريعاً من عملهم، ووجه إسماعيل الدعوة إلى السيد المحافظ والسيد وكيل وزارة الأوقاف لكي يأتوا ويفتتحوا المسجد، والشيء نفسه بالنسبة إلى المصنع الذي أصبح جاهزاً لكي يخدم كل أبناء القرية ويوفر لهم فرصة عمل ويوفر كل ما تحتاجه المحافظة من المنتجات البلاستيكية، وهذا ما كان.

إنه يوم عرس إسماعيل فالمحافظ ووكيل وزارة الأوقاف قد أبديا موافقتهما على الحضور وتم افتتاح المسجد والمصنع في حضور لفيف من المسئولين والضيوف، لم تكن سعادة أهل القرية بالشخصيات العامة التي حضرت إليهم تقدر بوصف، وكلمات الشكر والفخر التي تلقاها إسماعيل من القيادات المسئولة حينما شاهدوا التحفة المعمارية المتمثلة في هيئة المسجد كانت أكبر مكافأة له ولوالده الذي سار جنباً إلى جنب بجوارهما رافعاً رأسه وسط الجميع فخوراً بما أنجب وما حققه نجله.

مرت الأيام سريعاً وبدأ إسماعيل يتأهب للعودة مرة أخرى إلى تلك الدولة التي يعمل بها وأصبح فيها صاحب شركة ذات ثقل في مجال البناء والتعمير، ويعود ذلك كله إلى ذلك الرجل الذي رأى في إسماعيل إنساناً ذا خلق وعلى كفاءة عالية في مجال عمله فشاركه دون النظر إلى المال بل من أجل الجهد والعمل والنجاح، ربما يكون ذلك الحدث قليلاً ما يحدث وإن دق الوصف فهو نادرًا ما يحدث في مجال المال والأعمال خصوصاً في تلك الأيام، لكن لا أحد يعلم ماذا يقدر الله لعباده المخلصين.

مرت الأيام سريعاً وسافر إسماعيل مجدداً إلى تلك الدولة لكي يباشر عمله بها وترك والده يدير أمر المصنع، لكن ظروفه الصحية بدأت في التدهور يوماً بعد الآخر، كانت أفراح في حيرة من أمرها هل تخبر أخاها إسماعيل الذي لم يستغرق أمر سفره إلا أياماً قليلة، وتريد أن تهتم بأمر دراستها ورعاية منزلها، أمور كثيرة وجدت أفراح نفسها أمامها وزاد الأمر صعوبة حينما ساءت حالة سعيد الصحية ودفعته للانتقال إلى المستشفى

الذي كان يعمل بها، وهناك تم حجزه لعدة أيام حتى يتلقى العلاج اللازم، مر أسبوع على أفراح من أصعب أيام حياتها، لقد كانت تتوجه إلى الجامعة في الصباح وتعود منها إلى المستشفى لكي تطمئن على صحة والدها وترافقه قليلاً لحين أن تذهب الأم التي كانت تبيت مع زوجها إلى المنزل لكي تبدل ملابسها وتجلب بعض الأغراض والاحتياجات اللازمة وتعود مجدداً للمستشفى لكي تعطي فرصة لأفراح تعود إلى المنزل لتحصل على قسط من الراحة وتذاكر بعض دروسها وتتأهب للذهاب إلى جامعتها في صباح اليوم التالي.

كاد الإرهاق يفتك بأفراح وظهرت علاماته واضحة على وجهها مما دفع سما أن تطلب منها عدم الحضور إلى الجامعة وتتفرغ لرعاية والدها، لكن إصرار أفراح على تحقيق هدفها الأساسي منعها من تنفيذ ذلك الاقتراح وتحاملت على نفسها حتى خرج والدها من المستشفى بعد أن تحسنت حالته الصحية بشكل نسبي، ومع الوقت وتدريجياً بدأ يمارس حياته اليومية بشكل طبيعي إلى حد ما لكن ما زال أثر المرض الذي أصابه واضحاً عليه.

إلى أن جاء اليوم الذي لا يتمناه أي رجل في هذه الدنيا، لقد عاد إليه ابنه إدريس ملفوفاً في علم وطنه الذي كان يدافع عنه، لقد نالت منه يد الإرهاب الآثم في صحراء سيناء المقدسة، تلك البقعة التي تروى بدماء أبنائها المخلصين من رجال الجيش والشرطة الأوفياء.

ربما لا يدرك حجم المصيبة التي وقعت على تلك الأسرة إلا هم،

وتحديداً الأم والأب الذي نزل عليهم الخبر كالصاعقة، مات إدريس ذلك الشاب الذي تغير عقله وأسلوب تفكيره منذ أن التحق بالقوات المسلحة كجندي يؤدي خدمته الإلزامية، لم يستطع الأب أن يخفي حزنه أو تخفي الأم عويلها على فقدان رجل حملت فيه تسعة أشهر وأرضعته عامين من ثدييها وعاصرت مراحل عمره كلها إلى أن عاد إليها شهيداً، أما أفراح فكان الخبر بالنسبة لها أمراً غير مصدق، كيف يفارق الحياة وهو من أخفى أمر إصابته في المرة السابقة من أجل أن يعود ويثأر ممن قتل أصدقاءه وممن أصابوه، إن أخاها بطل حقيقي ومقاتل شرس كما أخبرها هو وقص عليها بطولاته في محاربة الإرهاب، لم يكن يعلم الأب المكلوم أن ابنه قد أصيب سابقاً أثناء تصديه لتلك المجموعات الإرهابية التي أصبحت كالسرطان المنتشر في جسد وطننا العربي، وها هو الآن يعلم ما لم يعلمه عن ذلك الجندي المقاتل الشجاع الذي فدى بروحه بقية زملائه ودفع حياته ثمناً لحرية الوطن، استمع إلى ذلك القائد الذي جاء مرافقاً للجثمان بأمر من القائد العام للقوات المسلحة الذي سبق وأن تعامل مع هذا الجندي الشجاع حينما قام بزيارته في المستشفى أثناء تلقي العلاج، أخبر القائد الأب بأن ولده فخر لهذا الوطن وللقوات المسلحة ككل فقد ضرب أعظم الأمثال في الفداء والتضحية، ولولاه لكانت الفاجعة أكبر مما هي عليه الآن، نعم كان إدريس في إحدى المهام الخاصة لمداهمة أكبر الأوكار الإرهابية في سيناء، وحينما اشتد الحصار على الإرهابيين قرروا أن يفجروا المكان بكل ما فيه وكان ذلك سوف يحدث لو خرج هؤلاء الخونة

من جحورهم مفخخين أنفسهم وتلك السيارات التي كانوا يستقلونها، لكن إدريس باغت الجميع وكان أول من داهم ذلك الوكر فانفجرت ألغامهم فيهم واستشهد واحد من أفضل من قدموا وخدموا في القوات المسلحة، طلب القائد من الأب أن يفخر بابنه البطل وأن يكف عن البكاء ويزيد له من الدعاء وعاهده أنه ورجاله لن يعودوا من سيناء إلا حينما يثأرون لكل أبناء هذا الوطن أو شهداء، فهذا عهدنا إلى هذا الشعب العظيم الذي يقدم أبناءه بكل رضا وحب وفخر فداء لوطن هو أغلى علينا جميعاً من أنفسنا وأرواحنا.

دفن إدريس في جنازة مهيبة، حضرها جموع من أهل المحافظة والقيادات الأمنية والمسئولون ومندوب عن رئيس الجمهورية، يا له من بطل ذاع صيته بعد وفاته!

- إدريس مات، الإرهابيون قتلوه وهو قتلهم، أخويا مات يا اخويا وبقى خلاص شهيد عند ربنا، أمي وأبويا لا بياكلوا ولا بيشربوا ولا بيبطلوا عياط ونواح من ساعة ما حصل اللي حصل، وأنا مش مصدقة، هو مات بجد، مات بجد!

- وحّدي الله يا أفراح.

وأغلق الخط ونزل مسرعاً على مكتب الطيران ليحجز على أول رحلة، عاد إسماعيل ليشارك أسرته الفاجعة التي لحقت بهم، نعم الأسرة الآن في أشد الحاجة لمن يلملم شتاتها، ويشد قوامها ويقف صلباً أمام تلك الظروف الطاحنة التي عصفت بها، فكان لإسماعيل دور هام في فعل

ذلك، جلس مع والده وتحدث إليه عن عظمة أجر أخيه إدريس ذلك الذي علم قيمة الشهادة وذهب إليها دون تردد، تعلم في مصنع الرجال كيف يكون الفداء والتضحية فاختار أن يكون مثلاً لمن يخلفه في مكانه مثلما كان هناك قبله أبطال كثيرون أدوا نفس الدور بنفس راضية طامعة في جنة الفردوس، انتقل إلى أمه وحدثها عن سعادته وفخره بأخيه الأصغر وراح يعقد مقارنة بينه وبين أخيه إدريس ذلك البطل الذي قدم روحه فداء لهذا الدين، نعم يا أمي لقد كان إدريس يدافع عن الدين الإسلامي الصحيح، ويقاتل أناسًا أخذوا من الدين ستاراً حتى يستبيحوا دماء الآخرين، وهل الإسلام يا أمي يبيح دماء المسلمين وغير المسلمين؟ هل الإسلام دين قتل وإرهاب؟ نعم كان يقاتل من أجل أن يقول إن الإسلام دين سماحة ورحمة لا دين عنف وإرهاب، كان يدافع عنك وعن أختي وعني وعن أبي، وما أعظم أجره عند الله! لا تبكي يا أفراح فإن أخانا إدريس حقق ما يتمناه أي مخلص لله ونال ما يتمناه أي طامع في حب الله، إنها الشهادة يا صغيرتي، الفردوس الأعلى، جنة الخلد، أرأيتِ لقد جمعت المال وأنفقته من أجل نيل رضا الله ولا أعلم هل سيتقبل الله عملي أم لا؟ أما إدريس فهو في منزلة الأنبياء والصالحين، اللهم ارزقنا الشهادة واجمعنا بأخي إدريس في الفردوس الأعلى، اللهم آمين.

الفصل الثامن

الموت سُنة الحياة، تلك هي الحقيقة التي يجب أن يؤمن بها الجميع في ذلك المنزل الصغير، لقد مات إدريس واتشح المنزل بالسواد والحزن على فراقه لكنهم ما زالوا يتنفسون، ما زال أهل المنزل على قيد الحياة، ربما أجساد فقط، لكنهم في نهاية الأمر أحياء، وفراق إدريس أمر واقع لا محالة وعليهم أن يتعاملوا معه.

أفراح حاولت أن تتغلب على تلك المصيبة التي وقعت على روحها كالصاعقة، نعم تلك هي الحقيقة، فبعد أن تغيرت مشاعرها تجاه أخيها وبدأت تتفاخر به أمام نفسها وأمام أصدقائها في الجامعة، وأصبح إدريس يشارك إسماعيل الحكي والحب والفخر والاعتزاز لدى أفراح أمام أصدقائها، صار الآن في عداد الموتى، شهيداً، كلما تذكرت هذا الأمر كانت دموعها تتساقط من عينيها كالمطر، الذي لا يتحكم في سقوطه إلا الله، لم تكن تتخيل أن ذلك المقاتل الذي باتت تتباهى به أمام الجميع سوف يصبح في عداد الشهداء سريعاً، كلما تذكرت ذلك اليوم الذي أخبرها فيه

بأمر إصابته التي لحقت به وأصر ألا يخبر أحداً من أسرته خوفاً عليهم من القلق وتلك اللحظة التي سمعت فيها خبر استشهاده سالت دموع عينيها دون أن تدرى ولسان حالها ينطق:

– ابن موت يا أخويا، الله يرحمك.

ساءت حالتها النفسية في بداية الأمر وكان لصديقتها سما دور هام في تلك الفترة، فقد قامت بتخفيف تلك المعاناة والفاجعة التي لحقت بها، ووقفت بجانبها وحاولت أن تخرجها من حالة الحزن والصمت التي لحقت بها في أوائل الأيام والتي كانت فيها أفراح أشبه بالميت الحي، كانت ترفض كل شيء، لا طعام، لا شراب، لا حركة، ولولا أن النفس الذي تتنفسه شيء لا بد منه ولا إرادي لكانت رفضت حتى ذلك الأمر.

لكن كما قال أسلافنا: الموت سُنة الحياة.

بدأت أفراح مع الوقت استعادة عافيتها، والعودة للحياة من جديد، كان للأب الحكيم دور في ذلك، وكذلك الأم المؤمنة برغم وجعها وكسرة قلبها، لكنها صبرت وتحملت حتى تستطيع أن تكمل ما تبقى لها من عمر أمام أبنائها في الصورة التي يجب أن تكون عليها.

مرت الأيام سريعاً وعاد إسماعيل رغماً عنه إلى تلك الدولة الخليجية التي يعمل بها، وقبل سفره جلس معه والده ودار بينهما حوار بخصوص ذلك المصنع الذي أقامه إسماعيل من أجل أخيه إدريس.

– شوف يا إسماعيل، أنا عارف إن الكلام اللي أنا هاقولهولك ده صعب شوية ويمكن ما يجيش على هواك، بس لازم أقوله.

- خير يا حاج ..في إيه؟
- المصنع.
- ماله يا حاج؟
- معدش له لازمة يا ولدي.
- ليه بس يا حاج بتقول الكلام ده؟
- علشان اللي إنت بنيت له المصنع خلاص، قابل وجه كريم، وأنا وأمك مسيرنا نحصله.
- إنت بتقول إيه بس يا حاج، ربنا يدي لكم طولة العمر.
- يا ابني اسمع مني، أنا خلاص صحتي بقت على قدها .. وموت أخوك الله يرحمه قسم وسطي ومش أنا لوحدي، لا .. ده قسم وسطنا كلنا، بس هانقول إيه، ما يتعزش ع اللي خلقه.
- ونعم بالله يا حاج.
- بيعه يا ابني .. إنت أولى بفلوسه طالما مش عايز تقعد هنا وتديره بنفسك، أنا كفايا علي الجامع أصلي وأعبد ربنا فيه بقية أيامي لحد ما أقابل وجه كريم، ولو على الفلوس إنت من غير المصنع ده مش مخلينا عايزين حاجة.
- اسمع يا حاج، المصنع ده مش هيتباع ولا هيتقفل، ده بتاع إدريس وده الحاجة الحلوة اللي بتهون علي فراقه، ولو على اللي يديره ما تشيلش هم، بس بيع مش هيتباع، ولو إنت مصمم إني أبيعه يبقى إنت تبيع هدوم إدريس الأول اللي إنت نقلتها من دولابه لدولابك، أنا ما بيعش ريحة

أخويا يا أبا.

كانت تلك الكلمة كفيلة بأن تجعل من سعيد الأب أحزن رجال الأرض، فكلما حاول أن يخفف العبء عن كاهل ابنه الكبير، كلما زاد الابن وجع الأب بحسن خلقه وتربيته، سافر إسماعيل لكي يباشر عمله بعد ما أتى بأحد أصدقائه المقربين له ولأسرته وكلفه بإدارة المصنع ورعاية أسرته أثناء فترة سفره، ربما كانت الأم لا ترغب في أن يفارقها إسماعيل بعد أن فارقها إدريس، لكنه أقنعها بأمر الفراق، فلا أحد يدري ماذا تحمل الأيام القادمة! ولا أحد يدري أين تكون نهاية المطاف؟!

أما أفراح فقد تحاملت على نفسها كثيراً وحاولت أن تخرج من تلك المحنة بالمذاكرة خصوصاً أن ما فاتها في أمر الدراسة كثير، فعكفت على أن تعوض ما فاتها سريعاً قبل امتحانات نهاية العام الدراسي الذي شارف على الانتهاء، وبالفعل اجتهدت أفراح حتى تستطيع اللحاق بركب دراستها قبل أن يمر الوقت في حزن على ما فات، اعتكفت داخل حجرتها لا تفعل شيئاً إلا المذاكرة حتى جاء يوم الامتحان وتوجهت إلى الجامعة في صراع داخلي شديد، بين حزنها على وفاة أخيها وبين حلمها ورغبتها في الحفاظ على التفوق والتميز، لم يكن الأمر هينًا عليها لكنها حاولت قدر المستطاع أن تتغلب على ذلك الحزن الدفين الذي يسكن أعماقها، إلى أن انتهت من أداء امتحاناتها وعادت إلى منزلها تكمل أحزانها معتكفة ومنعزلة عن ذلك العالم المحيط بها، لم تعد كما كانت في سابق عهدها، غربت ضحكتها من على وجهها، حالها حال بقية أهل هذا المنزل.

الفصل التاسع

كبرت أفراح، صارت عروسة يتهافت عليها خطابها.

بالأمس حدثتني زوجة جارنا لكي تأخذ أفراح إلى ابنها محمد، لكنني تعللت بأنها ما زالت صغيرة، ولا تفكر في هذا الأمر الآن، وكل هدفها هو إتمام تعليمها.

كان هذا جزءًا من الحوار الدائر بين سناء وزوجها سعيد بداخل غرفتهما، في حقيقة الأمر كانت الأم تخفض صوتها لدرجة شديدة حتى لا تسمعها ابنتها، فهي تعلم تماماً أن أفراح لا تفكر في أمر الزواج نهائياً، لكن كان لا بد أن تخبر زوجها بهذا الأمر حتى يتأهب إلى ذلك اليوم لأنه آتٍ لا محالة، حمل ما أثقله من حمل على كتف الأب أمر الزواج هذا، فهي ابنته الوحيدة التي لم يرفض لها طلبًا قط، ولم يفرض عليها أمراً قط، وهو يعلم أن أفراح ترفض فكرة الزواج في الوقت الراهن، لكن إلى متى ستظل ترفضه، فهو شيء لا بد منه، وهل يوجد أسعد من تلك اللحظة على الأب أو الأم وهما يشاهدان أبناءهما يوم عرسهم، وخصوصاً أفراح فهي البنت

الوحيدة التي جاءت بعد طول انتظار، لن يتعجل الأب الأمر لكن الأم تريد أن تنهي تلك الحالة التي صارت عليها ابنتها والتي هي من وجهة نظرها (دلع زيادة)، فالأم ما زالت تفكر بمنطق أهل القرية التي تعيش فيها، وتسير على تلك العادات والتقاليد التي تحكم بزواج الفتاة وهي ابنة السادسة عشرة، وأقصى عمر للزواج هو الثامنة عشرة، وغير ذلك تصبح الفتاة بها عيب أو كما يقال باللهجة العامية (بايرة).

من وقت إلى الآخر كانت الأم تلمح إلى ابنتها بذلك الموضوع، ربما كانت تؤهلها نفسياً لهذا الحدث، لكن أفراح كانت دائماً تصدها وتهرب من هذا الحديث متعللة بالدراسة، في كل مرة تحاول أن تنقل إلى أمها وجهة نظرها التي تقتنع بها، إنها لا تفكر في هذا الأمر نهائياً، وكل تفكيرها أن تصبح ذات قيمة بداخل المجتمع، كلمات أفراح كانت تصيب الأم بحالة من الضيق وعدم الرضا، كيف تفكر بهذا الأسلوب الذي يجعل منها ابنة تعصي والدتها ولا تنظر إلى مستقبلها ومصلحتها؟!

بدأت الخلافات تنشب بين أفراح والأم من حين إلى آخر، والسبب الرئيسي هو ذلك الأمر، أما الأب فكان يتابع ما يدور بداخل منزله وهو في حيرة من أمره، وما العمل؟ الابنة بداخلها طموح، والأم تتحكم فيها العادات والتقاليد، وهو بينهما حائر، يرضي مْنَ على حساب مْنَ؟ أمر غاية في التعقيد والصعوبة، لكن في نهايته لا يصح إلا الصحيح، البنت مسيرها لبيت جوزها، كما تقول المقولة الشعبية في هذا الصدد.

وصل الأب إلى قرار صائب وحكيم بعض الشيء، حينما قرر أن يجلس

مع أفراح بمفردهما.

فبعد أن قام بأداء صلاة العشاء في المسجد وعاد إلى المنزل وتناولوا العشاء سوياً طلب الأب من أفراح أن يتحدث إليها قليلاً داخل غرفته بعيداً عن حضور الأم، فتوجه إلى الغرفة ولحقت به أفراح حاملة بين يديها كوب الشاي الخاص بوالدها، وما إن دخلت عليه إلا وطلب منها أن تغلق الباب خلفها ودار بينهما الحديث.

- تعالي يا أفراح، اقعدي يا بنتي.

- خير يا أبا.

- خير يا بنتي، شوفي بقى، أنا من يوم ما إنتي جيتي للدنيا وأنا عمري ما رفضت ليكي طلب ولا غصبتك على حاجة .. صح؟

- ربنا ما يحرمني منك يا أبا.

- بس يا بنتي إنتي كبرتي، وأنا وأمك خلاص، رجل برة ورجل جوة.

- ربنا يدي لكم طولة العمر يا أبا، ليه بتقول كده؟

- لأن الكلام ده لازم يتقال ولازم تسمعيه وتفكري فيه بالعقل، إوعي تفتكري لما أمك بتكلمك في موضوع الجواز ده يبقى هي بتغصب عليكي إنك تسيبي جامعتك ودراستك، لأ .. خالص، بس برضه إنتي لازم تفهمي إننا خلاص قربنا نمشي ونسيبك، وأخوكي الكبير مشي وسابنا، وإنتي يلزمك راجل يسترك ويكون ضهرك وسندك بعد منا.

- يا أبا إنت عارف إني ....

- عارف كل اللي إنتي بتفكري فيه، بس برضه عايزك تعرفي اللي إحنا

بنفكر فيه، إحنا مالناش غيرك وعايزين نطمن عليكي.

لم يكن أمام أفراح في تلك اللحظات إلا الرضوخ والخضوع، غادرت الغرفة وهي تعد والدها بأن تفكر في الأمر بجدية من وجهة نظرها.

كانت خطواتها البطيئة نحو غرفتها دليلاً كافياً للأم على إدراك ما كان يدور بداخل الغرفة، وما إن دخلت أفراح غرفتها وأغلقت بابها إلا وتوجهت الأم مسرعة نحو سعيد الجالس على سريره في حالة من الصمت الشديد، سألته عما دار بينهما، فأجابها بكلمات مقتضبة تلخص ما دار، كانت هناك مشاعر متناقضة بينهما، فعلى وجه أم أفراح تكسو السعادة ملامحها على عكس الأب تماماً الذي يعلم أنه كسر بخاطر الابنة الوحيدة التي كان يرجوها من الدنيا.

أما أفراح التي مكثت داخل غرفتها في حالة من الحزن الشديد حائرة، أصبحت ضعيفة بعدما أزيلت كل حواجز القوة التي كانت تحتمي بها فيما سبق، وأصبحت تقف الآن عارية بلا أي حاجز صد يحميها من بطش تلك العادات والتقاليد التي تحيط بها لكي تلتهم أحلامها وطموحاتها، إنها المرة الأولى من يوم ولادتها التي تشعر فيها بالضعف وقلة الحيلة، ترى ماذا عليها أن تصنع الآن؟

مرت الأيام سريعاً، استسلمت أفراح إلى قيود تلك العادات والتقاليد، يوماً تلو الآخر، بدأت أحلامها تتبخَّر، انعزلت تماماً عن العالم الخارجي، حتى إسماعيل لم تحتمِ به كعادتها، لم تطلب مساعدته ومساندته لها لأنه ببساطة أصبح منعزلاً تماماً هو الآخر في عالمه الذي ذهب إليه، اللهم إلا

اتصالاً هاتفياً كل أول شهر يطمئن من خلاله أن صديقه الذي يقوم بإدارة المصنع قام بإرسال أرباحه إليهم في المنزل ويطمئن على أحوالهم بشكل سريع اعتباري ليس أكثر ولا أقل.

اقترب العام الدراسي الجديد على البداية، لكن أفراح عزمت النية ألا تذهب للجامعة مجدداً، حتى اتصالات صديقتها سما أصبحت لم ترد عليها وكأنها لم تعرفها وكأنها لم تكن بالأمس هي صديقتها الوحيدة، في تلك الفترة بدأ شباب أهل القرية والقرى المحيطة يتقدمون إلى خطبة أفراح، وهي لا تبدي أي اهتمام بما يحدث حولها، كان الأمر مثيراً للدهشة خصوصاً لدى الأب الذي رأى في ابنته تحولاً تاماً، أجبرته أفراح على طرح العديد من الأسئلة والملاحظات، بينه وبين نفسه، في حقيقة الأمر كان يستحق ذلك، لقد تحولت أفراح في فترة وجيزة مائة وثمانين درجة، تحولت إلى آلة بشرية تنفذ ما يطلب منها لا غير، تطيع الجميع وتنفذ الأوامر والواجبات اليومية والمنزلية فحسب، لا تبدي أي رأي، حتى حينما سألها والدها عن سبب عدم استكمال دراستها كانت إجابتها مرتبة جداً ومنطقيه للغاية، تعللت بأن البيت لا يوجد به أحد غيرها وأمها بدأت تظهر عليها علامات الشقاء والتعب وهو نفسه، أخبرته أفراح أن السن تقدم به ولا يقوى على فعل أشياء كان يقوم بها بالأمس، أما هي فدورها الحقيقي هي الطاعة وتحمل المسئولية خصوصاً بعد وفاة إدريس وغربة إسماعيل، ثم طرحت سؤالاً هاماً للغاية، ترى يا أبي حينما أنتقل إلى بيت زوجي كما ترغبون من سيقوم بخدمتكم ومن سيهتم بأمركم؟ لا

أحد غيرى، لذلك من العقل أن أتحَّمل المسئولية وأتأهب لكل ذلك الآن بدلاً من أن يصدمني به الغد القريب وأفشل في مواجهة هذا الاختبار الذي لا بد منه، فقط كل ما أريده هو ترتيب أموري حتى أتأقلم على الوضع الجديد، فالدراسة والتعليم لا فائدة لهما في تلك الحياة التي سوف أنتقل إليها، فأنا من وجهة نظر الجميع وظيفتي الحقيقة هي أن أتزوج وأصبح أماً وأتحمل مسئوليات الزوج والبيت والأولاد، ثم ابتسمت ابتسامة ساخرة وقالت بحسرة شديدة: الأنثى يا أبي في هذا المجتمع الذي نعيش به لا يحق لها الطموح والنجاح وتحقيق الذات، هي خُلقت فقط من أجل خدمة الرجل مهما حققت من إنجازات تظل في أعين الجميع خادمة لزوجها وأسرتها، أرجو ألا تزعجك كلماتي يا أبي فتلك هي الحقيقة التي يجب أن أضعها نصب عيني، أما بشأن هؤلاء الذين تقدموا للزواج مني فلا تقلق بأمرهم ولا تتعجَّل موافقتي، سيأتي من يدفع أكثر فأنا بالنسبة لهم مجرد سلعة ثمينة وسوف يتسابقون على اقتنائها.

أدرك الأب بعد حديث ابنته أن الأمر قد انتهى، لقد حكمت أفراح على نفسها بالحزن والتعاسة من قبل أن تخطو خطوة واحدة في هذا الطريق، لكن ما باليد حيلة، فابنته تتحدث إليه بلغة الحكماء والمتخصصين في أمور هذا المجتمع الذي نعيشه، إنه الواقع الذي لا يتغير مهما تغيرت المصطلحات والمسميات، فتلك الأفكار والعادات والتقاليد موروث لا يجوز المساس به أو تقويمه، انتهى الأمر ولن يجدي الحديث نفعاً، لقد أعدت أفراح العدة وعقدت العزم على ما هي مقدمة عليه.. وبعد صلاة

فجر هذا اليوم، لم يغادر سعيد المنزل بل انتظر أن فرغ المسجد من المصلين وأغلق باب المسجد عليه وجلس يشكو إلى المولى عز وجل ويناجيه، فبعد أن كان يملك كل أصول السعادة والراحة، مات إدريس وهاجر إسماعيل وانطفأ نور أفراح.

وجع ما بعده وجع ولا ملجأ إلا لله، ترى ماذا ستجلب له الأقدار في الأيام القادمة وهل سيقوى على تحمل ما هو آتٍ؟

الفصل العاشر

مرت الأيام سريعاً، بدأت أفراح تتأقلم مع ذلك العالم الجديد الذي صنعته لنفسها، نعم، رضخت أفراح إلى العادات والتقاليد ومات بداخلها ذلك الطموح الذي كان يلازمها منذ اليوم الأول لها في الجامعة، لكن هذا كان في سابق العهد، والماضي لا يعود إلا من خلال الذكريات التي تمر في مخيلتنا، وما عليها الآن إلا أن تنفذ رغبة والديها وتختار الزوج المناسب الذي يليق بها حسب قول أمها.

كان فتحي ابن الحاج محروس أحد أبرز المتقدمين للزواج من أفراح، هو تاجر ابن أكبر تجار الدائرة التي تقطن بها، لقد أرسل والدته لطلب يد أفراح وهو الآن بانتظار الرد.

جلست الأم مع ابنتها وأخبرتها بما جرى بينها وبين أم فتحي التي زارتهم اليوم وكان ذلك في حضور الأب الذي أبدى عدم إجبار ابنته على اختيار شريك حياتها وترك لها الأمر خالصاً، لكن الأم كانت ترى في فتحي فرصة ذهبية لا تعوض، فهو رجل ثري ولديه نفوذه، كما أن له

هيبة بين الجميع ورثها عن والده، بالإضافة إلى أعماله الحرة، فهو يعمل في تجارة الأدوات الكهربائية، والجميع يتعامل معه نظراً لما يقدمه لهم من تسهيلات في السداد وما شابه، بل أخبرتها الأم بأنه سوف يتكفل بكافة الأدوات والتجهيزات التي يحتاجها منزلها الجديد وكل ما على أفراح جلبه فقط هو حقيبة ملابسها، لكن الأب تدخل في تلك اللحظة ليخبر الأم أنه سوف يجلب إلى ابنته كافة الأشياء التي يجب أن تجلبها العروسة في منزلها الجديد، ليس ذلك فحسب بل إنه سوف يجلب لها أثمن الأشياء وأفخرها حتى لا ينظر لها زوجها يوماً نظرة لا تستحقها وتظل في عينيه شيئاً ثميناً لا يشترى بالمال، كانت أفراح تتابع الحديث الدائر فيما بينهما وهي تبتسم بحسرة شديدة وتحدث نفسها قائلة، الآن أصبحت مثل القطعة الأثرية التي تباع في مزاد علني لذلك وجب علي أن أذهب إلى من يدفع أكثر، وأنهت أفراح ذلك الحديث الدائر بين الأم والأب بجملة قاطعة، غداً سوف أخبرهم ردي في هذا الشأن، وتركتهم وذهبت إلى غرفتها متعللة بأنها سوف تخلد إلى النوم، وبداخل الغرفة، جلست أفراح على ذلك المكتب الذي كانت تذاكر عليه وبدأت تستعيد ذكرياتها وهى تبكي وتبتسم في الوقت نفسه، مشاعر مختلطة ما بين سعادة الأمس وتعاسة اليوم، تلوم نفسها بشدة، كيف لها ألا تعيش قصة حب كسائر الفتيات اللاتي رافقتهن في الجامعة؟ ماذا جنت من التعب في المذاكرة والدروس والذهاب الى الجامعة وكل ذلك؟ ماذا جلب لها التعليم ككل؟ لا شيء، الآن أصبحت مجرد شيء يقام من أجله مزاد، هي لم تتخيل نفسها يوماً

أن تصبح زوجة ومسئولة عن منزل وأسرة وما شابه ذلك، كانت تحلم أن تصبح دكتورة في الجامعة، تعلم الأجيال القادمة وتنقل تجربتها إلى الفتيات القادمات من القرى والنجوع، لكن، ليس كل ما يتمناه المرء يناله.

وللمرة الأولى من قرار تخليها عن التعليم أمسكت أفراح قلماً وأخذت تكتب على صفحات دفترها الخاص، وكأنها قررت أن تكتب مذكراتها، وأول ما كتبته:

أنا لا شيء، أبلغ من العمر ثلاثة وعشرين عاماً، تعلمت الكثير من الكتب لكني في حقيقة الأمر لم أتعلم شيئاً، فبعد كل هذا الوقت الذي أفنيته في الدراسة والقراءة والتعلم، اكتشفت أن للحياة منهجاً آخر مختلفًا تماماً عن ذلك المنهج الذي كنت أدرسه في المدرسة والجامعة، جاهلة من تظن أن من حق الأنثى في هذا المجتمع أن تحلم أو تشعر بأن لها دوراً فعالاً غير أن تكون ربة منزل، دعك من كل هذه المصطلحات الواهية التي نسمع عنها، وأركل كل ما تشاهده حولك من مسميات التحرر، كثيراً ما أسعدني حلم مشاركة المرأة في المجتمع، يا له من مسمى ذي بريق خاص يدعو إلى الفخر وينثر الطاقة الإيجابية بداخل روح أي فتاة حالمة! لكن حينما تصطدم بأرض الواقع تدرك أن ذلك كله ضرب من الخيال، ولا وجود له من الأساس، استشهد إدريس، أخي، قتلته مجموعة ممن يدعون أنهم يدافعون عن الإسلام، شيء مخز حقاً أن أذكر ذلك على الصفحات، فهؤلاء المجرمون الذين قتلوا أخي وأبناء وطني هم مجرد مرضى نفسيون،

يدعون أنهم يحاربون من أجل الإسلام وهم في واقع الأمر يحاربون الإسلام، أما الإسلام فهو بريء منهم جميعاً، إن أصدق كتاب قرأته هو القرآن الكريم، ولم أجد بين آياته ما يدعو إلى أفعالهم الشيطانية، رحم الله أخي وكل إخوتي من أبناء هذا الوطن الذين قتلوا على يد هذه الفئة الضالة، نقص عقد العائلة فردًا، كان إدريس أحد جدران غرفتي التي تستر عورتي وتحمي شرفي وتقيني شر المجهول، أما إسماعيل، فلا أعلم شيئاً عنه الآن، لقد لقي جزاء تعبه، تحَمّل الكثير من أجلنا جميعاً، فلولاه ما كنا نحن الآن على ما نحن عليه، كم أسعدني وأنا صغيرة، كان هو بمثابة رأس الحربة الذي يطعن قلب أي صعب يقف أمامي، أتذكر حينما أخذني لكي يشتري لي ملابس الجامعة، كنت حينها قروية ساذجة، لا تعرف أي شيء عن مطامع الدنيا وتلك النفوس المريضة التي تتربص بنا، ولم أع أعين هؤلاء الذئاب الذين يحدقون بي، إسماعيل جعلني فتاة مميزة للغاية، كنت أول من يحمل الهاتف الخلوي في تلك القرية التي ما زالت تشع ظلاماً، كان يظن مثلي أن هناك أملاً في أن يصبح الحلم واقعاً، ليتك بجانبي الآن يا أخي، فأنا في أشد الحاجة إليك، ولكن، ترى ماذا حلَّ بك؟ لماذا لم تهتم بأمري كعادتك، لماذا لم تعترض على أمر تركي للدراسة الجامعية، لماذا لم تمانع في أمر قبولي للزواج وأنت تعلم جيداً أن هذا ليس بخاطري وأنني أفعل ذلك رغماً عني، لماذا توقف حسك عن الشعور بي وأنت تعلم بأني لم أخن عهدي إليك ولم أهتم بالنظر إلى شيء إلا النجاح، نعم يا أخي، لم أهتم بأي شيء آخر في حياتي إلا أن أحقق ما حلمت به

من أجلي، فأنت شريك أساسي في ذلك الحلم وحين رحلت رحل كل شيء، لعن الله كل هذه العادات والتقاليد والقيود، أمي، أنا لست بالابنة التي تعصيك، ولا ذات الفتاة التي ترعرعت على التراخي كما تظنين، فقط كل ما هنالك أنني حلمت أن أصبح مختلفة عن سائر بنات هذه القرية التعيسة، لا أكثر ولا أقل من ذلك، ولكن، إن كان هذا ظنك بي فأنا الآن تحت إمرتك، وسوف أنفّذ أوامرك حرفياً دون النظر إلى الغد، أسأت فهمي يا أمي لكن وجب عليَّ الطاعة، أما أنت يا أبي فلا تحزن؛ إنه المصير المكتوب في السماوات، لا أعلم إلى أين تسوقني الأقدار لكني عقدت العزم على السير ولن أرد لك أمراً، فأنت كثيراً ما حققت لي مطالبي، أما أنت يا أفراح فدعيني أعزيك في كل شيء تفقدينه الآن، لا حلم، لا علم، لا حب، أزال الله همك وغمك، تصبحين على قدرك يا تعيسة.

هنا توقّفت أفراح عن الكتابة وقرّرت أن تخلد إلى النوم بعد أن أفرغت شحنة غضبها على صفحات مذكرتها، لم يكن نومها هادئاً، يبدو أن روحها ترفض كل ما ينفذه عقلها، ضميرها يجلدها بقسوة شديدة، لم تكن هي نفسها تظن أن بداخلها كل هذا الكم المتناقض من المشاعر والأفكار غير المتفقة، ولا تدري هل مات حسها، أم هي المرة الأولى التي توقظ حسها من نوم عميق.

في الصباح خرجت أفراح من غرفتها وهي تقاوم التعب والإرهاق الشديد الذي يكسو كل ملامحها، قامت بالأمور العادية وتناولت وجبة الإفطار مع أبيها وأمها وبعد وقت قصير خرج الأب ليؤدي صلاة الظهر

في المسجد كعادته، أما أفراح فجلست مع الأم أمام جهاز التلفاز تتابع أحد المسلسلات دون اهتمام، حالة من اللامبالاة تتملكها، نظرت لها الأم متعجبة وهي تسألها عن ردها في أمر العريس الذي تقدم بالأمس لخطبتها، فكان جوابها قاطعاً بالموافقة، في تلك اللحظات غمرت السعادة الأم وكأنها حققت نصراً مذهلاً على خصم عنيد، لدرجة أنها سألتها مرة أخرى لكي يطمئن قلبها وتتيقن مما سمعته، أكدت أفراح على أمها مجدداً ردها بالموافقة، أخبرتها الأم سريعاً أنها سوف تقوم بإجراء اتصال هاتفي بأم فتحي تخبرها فيه بردها على طلبها، لم تبد أفراح أي اهتمام بذلك وخولت للأم التصرف كيفما تشاء في هذا الأمر، لم تهدر الأم الوقت وقامت بإجراء المكالمة الهاتفية سريعاً دعت فيها أم فتحي ووالده وفتحي إلى تناول العشاء في مساء اليوم التالي، وما إن عاد والد أفراح من المسجد إلا وأخبرته بما حدث بينها وبين أفراح وما حدث بينها وبين أم فتحي، هنا نظر الوالد إلى ابنته وسألها: هل ما قمت به عن قناعة أم أنك فعلت ذلك لإرضاء أمك وحسب؟ نظرت أفراح إلى والدها وهي تبتسم ابتسامة ممتزجة بالوجع الملموس وأجابت قائلة: لا أحد يعلم مصيره في هذه الدنيا يا أبي، فقط قناعتي أخذتني إلى إرضاء من يحق لهم الرضا كما أمرنا الله، فالعمر يا أبي طريق لن يحيد عنه السائر مهما ظل يركض خلف أحلامه وطموحاته ومهما بلغ سعيه، لن يصل إلا لما قدر له.

في مساء اليوم التالي حضر فتحي مع أمه ووالده وتناولوا العشاء وبدأوا يتحدثون في أمور الزواج والتفاصيل الخاصة وما شابه، لم يبد فتحي أي

اعتراض على كافة الطلبات والشروط التي وضعها سعيد لكي يضمن بها حقوق ابنته الوحيدة ويوافق على الزيجة، بل أبدى مرونة شديدة، كان يريد أن يتزوج من أفراح بأي صورة وفي وقت وجيز، لدرجة جعلته يطلب أن تكون فترة الخطوبة قصيرة جداً معللاً ذلك بأنه يعرف والد العروسة ذا السمعة الطيبة، ويعرف أنه أحسن تربية ابنته، وأن كل شيء معد للزواج، لم يجد سعيد أي مبرر للرفض فكلما حاول أن يعطي أفراح الفرصة حتى تستطيع أن تتأكد من صواب قرارها كان فتحي يقابل الحجة بالحجة، في النهاية رضخ والد أفراح لطلب العريس ولم ينتهوا من مجلسهم إلا وكان كل شيء متفقًا عليه، وتمت قراءة الفاتحة على أن يكون موعد الخطبة الرسمية الأسبوع المقبل.

انتهى اللقاء الأول وذهب فتحي وباقي أفراد أسرته ليتركوا أفراح مع أفراد أسرتها لكي يستعدوا لتجهيزات الخطوبة وما شابه ذلك، كانت الأم أكثر سعادة من ابنتها بما يجري في حقيقة الأمر وهو شيء محير للغاية، فدائماً ما تكون الأم أكثر حباً وحناناً وشعوراً بابنتها، وخصوصاً أن أفراح هي الابنة الوحيدة، فمن المفترض أن تكون أكثر قرباً إلى قلب الأم، لكنها العادات التي تحكم وتتحكم في قواعد الحياة بتلك البيئة، على الجانب الآخر كان الأب يخشى أن يكون قد أرغم فلذة كبده على الزواج، ربما كان أرق بعض الشيء على أفراح من أمها، قبل أن يخلد إلى النوم ذهب إلى غرفة أفراح وراح يسألها:

- أفراح، إنتي مقتنعة بالجوازة دي يا بنتي؟

- أيوه يا أبا.
- إوعي تكوني وافقتي علشان ترضينا وخلاص.
- لا يا أبا ما تقلقش، أنا اقتنعت بكلام أمي، البنت مسيرها لبيت جوزها، بقولك إيه يا أبا.
- إيه يا حبيبتي.
- ما فيش أخبار عن إسماعيل.

وكأن أفراح دون أن تدري ضغطت على الجرح الثاقب بداخل روح الأب المكلوم، ودون أن يدري راح يشكو ألماً بداخله، إسماعيل، يا له من وجع لا تقوى الروح على تحمله! سؤال الليل والنهار الذي أبحث عن إجابته ولكني لا أجدها حتى الآن، أين هو الآن؟ وما هو المانع الذي جعله يختفي تماماً عنا؟ جل ما أخشاه أن يكون قد أصابه مكروه لا قدر الله، حينها لا أعلم على ماذا سوف أصبح، أظن إن حدث ذلك ستكون النهاية، اللهم لا ترني فيه مكروهاً ولا تكتب على قلبي فيه وجعاً أكثر من ذلك، كل ما أتمناه أن يعود إلى جواري.

لم يفصح الأب بكل ما بداخله من ألم أمام ابنته، وبعد أن رد بكلمات قصيرة ترك غرفتها وذهب غارقاً في بحر أوجاعه التي يحملها بين ضلوعه وترك أفراح شاردة التفكير في مصير أخيها الكبير الذي بات مصيراً مجهولاً للجميع.

وعلى غير العادة، خرج الأب من باب غرفة أفراح إلى باب المنزل متوجهاً إلى المسجد، كانت الساعات الأولى من اليوم الجديد بدأت، ولم

يبق الكثير على أذان الفجر، أخذ سعيد يقيم الليل ويدعو ويتضرَّع إلى الله حتى حان موعد آذان الفجر فأخذ يؤذن في أهل القرية للصلاة، وما إن انتهى من صلاة الفجر إلا وتوجه إلى منزله لكي يأخذ قسطاً من الراحة، كانت سناء في انتظاره، فكل ما يحدث مع زوجها بالنسبة لها شيء غريب وغير معتاد.

داخل حجرته سألته سناء عما به، وضع رأسه على وسادته وراح ينظر إلى سقف الغرفة ويتحدث إلى رفيقة دربه بصوت عالٍ:

- لا أعلم ماذا حل بي؟ كل ما أشعر به هو وجع الروح، ألم شديد لا أقوى على تحمله، أحزان تلو أحزان، ولا أدري ما هو القادم، أخشى أن أرحل عن عالمنا قبل أن يعود إسماعيل، أين هو؟ ماذا حل به؟ كيف انقطعت أخباره عنا فجأة؟ أشعر بالخسارة الكبرى، رحل إدريس عنى دون سابق إنذار، لكنها مشيئة الله، اللهم لا اعتراض على قدرك وأجلك وحكمتك، ربما رحيله هو سبب خوفي على إسماعيل، ربما، لكن، ما هو القادم؟ يا لطيف اللطف يا الله.

إن بكاء الرجل شيء يصعب وصفه فوق الصفحات، والأصعب حينما تكون تلك الدموع التي تتساقط على فراش رجل في عمر سعيد الذي تجاوز الستين عاماً، إنه يبكي خوفاً من الله ورضا بقدره، ورجاءً باللطف والتخفيف.

لم يختلف المشهد كثيراً بداخل غرفة أفراح التي ما زالت مستيقظة، هي الأخرى تبكي وتناجي ربها لكي يكون بجوارها ويهون عليها ما هي فيه

من ألم ووجع، يبدو أنها تسير نحو المجهول، بداخلها حرب شرسة لا يعلمها أحد غيرها، ترى ماذا يدور بداخلها؟ وفيم تفكر؟ هل حقاً هي مقتنعة بأن تصبح زوجة فتحي؟ هل هي في حاجة إلى إسماعيل؟ أم أنها تقدم على الزواج من أجل أن ترضي أمها وتنتهي من تلك الحالة التي تعيشها فقط لا غير، الأمر في غاية الحيرة وتلك الدموع المنهمرة من عينيها لا تتماشى مع حالة الصمت والإصرار الغريبة التي تكسو ملامح وجهها، ترى فيم تفكر أفراح؟

مر الوقت سريعاً لم يبق على موعد الخطبة سوى يومين، حضر فتحي ومعه أمه إلى منزل أفراح بعد أن تواصلت الأم مع سناء ليذهبوا إلى محل الذهب والمجوهرات حتى يشتروا الشبكة، ارتدت أفراح أجمل ملابسها وتزينت كعادتها، مظهرها الخارجي يوحي بالسعادة، أما في الداخل فهو مشوش وبشدة، توجه أفراد الأسرتين إلى المحل، وقفت أفراح بجانب فتحي في شكل تقليدي لتختار شبكتها، الأمهات بدورهن أطلقن الزغاريد، أما العريس المنتظر فهو يبدي سعادة غامرة ممتزجة بالشموخ ولسان حاله يقول من نظرات عينيه، أخيراً فزت بك وسوف تصبحين زوجتي.

انتهوا من شراء الشبكة وعادوا إلى منزل سعيد، تناولوا العشاء جميعاً، ثم ذهب فتحي وباقي أفراد أسرته كي يتأهبوا ويستعدوا لليوم الموعود.

مر اليومان سريعاً، العمل يجري على قدم وساق، الجميع يتأهب لحفل الخطوبة، أرسلت أفراح رسائل كثيرة إلى إسماعيل تخبره فيها بما يجري

لها، لكنها لم تحصل على رد كالعادة، فقدت الأمل في عودته كي ينقذها من مصير مجهول أو يصوب لها هذا القرار الخاطئ، ولم تجد أمامها إلا الرضوخ، جلست بجوار فتحي أمام كافة أهل القرية الذين يتراقصون على أنغام الموسيقى الشعبية، السعادة تكسو ملامح الجميع إلا أفراح التي كانت تدعي أنها سعيدة، وحينما سألها فتحي عن سر صمتها الدائم، كانت علتها الكسوف لا أكثر.

أما الأب سعيد الذي كان يقف مراقباً تفاصيل ابنته في الحفل، كان هو الوحيد الذي يعلم أن أفراح تعيسة من الداخل، وكل ما هو ظاهر للجميع ادعاء لا أكثر، وحين سألها بعد انتهاء الحفل كان ردها هو نفس الرد الذي أخبرت به فتحي من قبل، مجرد كسوف فتاة.

إن الزمن لا ينتظر أحداً، بل هو يركض والجميع يركض إما خلفه أو معه، انتهى فتحي من تجهيز مسكن الزوجية سريعاً ولم يتبق إلا أفراح تسكنه ليبدأوا حياة جديدة، تم تحديد موعد الزفاف، ولم يتبق على عقد القران إلا ساعات معدودة، وبعد تلك الساعات، أصبحت أفراح رسمياً زوجة فتحي التاجر الشهير الذي يعرفه أهل المركز كله رغم صغر سنه.

كل شيء يسير حسب الاتفاق والجدول الزمنى المسبق الذي وضعه فتحي مع والد زوجته، أما أفراح فكانت تتعامل مع كل شيء حولها بلا مبالاة شديدة تمثل أكبر علامة تعجب في القرن الواحد والعشرين، وكأنها ما زالت تعيش في القرون الأولى.

حضر الجميع حفل الزفاف المهيب الذي أقامه فتحي لعروسته أفراح،

في حقيقة الأمر فإن الحفل كان يعبر عن مدى ثراء فتحي بالإضافة إلى نفوذه وعلاقاته ومعارفه الكبيرة، كانت أفراح تنظر إلى المعازيم وهى تسأل نفسها، هل كل هؤلاء جاءوا من أجله حباً فيه، أم جميعهم تجار يتعاملون معه مثلما قال؟ هناك أناس بين الحضور رغم حسن مظهرهم إلا أن أشكالهم تبدو مريبة وكأنهم قاطعو طرق أو تجار مخدرات، ما هذا العبث الذي يدور في مخيلتي؟ لا يهم من هم، إنه مجرد حفل زفاف لا أكثر ومن الطبيعي أن أشاهد كل شيء متوقع وغير متوقع.

حان الآن موعد ذهاب العروسين إلى عش الزوجية الجديد، ندعوا الجميع بأن يتوجهوا لهما بالدعاء، كان ذلك ما أعلنته الموسيقي الممتزجة بالزغاريد، في تلك اللحظة وللمرة الأولى انقبض قلب أفراح وكأنها متوجهة نحو غرفة الإعدام.

الفصل الحادي العاشر

حقاً، من المستحيل أن ترغم الروح على معاشرة روحاً ترفضها، مهما قدمت من تنازلات، ومهما كانت المحاولات، فالروح لا تعشق إلا تلك الروح التي خلقت من أجلها.

كانت أفراح تسير وسط الحضور ويدها معلقة في يد فتحي وهي تتقبل التهاني وكأنها تتقبل المواساة في مصيبتها، كان واضحاً جداً أن خطواتها ثقيلة على الأرض وكأنها ترفض السير، لم يلاحظ أحد ما هي عليه إلا سعيد الذي أدرك كم الحزن الذي أمست ابنته عليه، وما إن وصلت إلى السيارة التي سوف تقلها إلى مسكنها الجديد إلا وألقت بجسدها وهى تنظر إلى أمها بشدة وكأن عينيها تقول لها، لماذا صنعت بي ذلك؟ وراحت دموعها تتساقط منها وكأنها تودع الجميع الوداع الأخير، بينما ظنوا أن تلك الدموع التي تكسو وجهها ما هي إلا دموع الفرح ولا يشعر أحد أنها على مشارف الموت.

وصلت السيارة الى منزل فتحي الذي يبدو عليه السعادة الشديدة، نزل من السيارة وذهب لكي يخرج عروسته ويدخلها منزلها الجديد، وقبل أن

يفتح باب السيارة لها، أخذ سلاحه الشخصي وأخذ يضرب مجموعة من الأعيرة النارية في الهواء ليعلم كل من في الجوار بوصوله مع عروسته، خرج أهل المنطقة جميعاً من منازلهم ليشاركوا فتحي فرحته، منهم من توجه إلى الشارع مباشرةً ومنهم من أطل من الشرفات، والزغاريد تملأ أرجاء الحي بأكمله، كانت أفراح تنظر حولها وكأنها تودع كل شيء جميل على وجه الأرض، وكأن ذلك المسكن الذي سوف تسكنه بعد لحظات ما هو إلا قبرها الذي سوف تعيش فيه إلى أن تقوم الساعة، فتح العريس لها باب السيارة ومد يده لكي تنزل، أمسكت بيده رغماً عنها وهى تدعي السعادة والجميع يشاركها الفرحة كل على طريقته الخاصة، فبعض الرجال جاءوا بأسلحتهم وأخذوا يطلقون الأعيرة النارية، وبعض النساء يرددن الأغاني الشعبية والفولكلورية على إيقاع التصفيق والزغاريد.

كانت أفراح يدها باردة للغاية وخطواتها هادئة جداً، لدرجة جعلتها تشعر أن تلك المسافة التي قطعتها من السيارة إلى باب المنزل تبدو وكأنها دهر كامل، وما إن أغلق فتحي الباب بعد دخوله إلا وشعرت أن الجو مظلم للغاية وأن ما أغلق عليها هو باب قبرها، ترى ماذا سوف يحدث بعد قليل، هل ستصعد روحي إلى السماء مباشرة أم سوف أرى ملاك الموت أمام عيني أولاً؟

هذا ما كان يدور في مخيلتها ولا يدري أحد لماذا أفراح كانت تفكر بهذه الطريقة المأساوية بالرغم من أن تلك الزيجة كانت تحلم بها أي فتاة في عمرها، نعم، إن المكانة التي عليها هذا العريس تحلم بها أي فتاة لكي

يصبح زوجها، فهو ثري ولديه أعماله التجارية الخاصة، بخلاف أنه من عائلة كبيرة يعرفها الجميع، بالإضافة إلى علاقاته الكبيرة مع كافة أطياف أهل المحافظة بأكملها، بل امتدت علاقاته لكي تصل إلى المحافظات المجاورة بالرغم من صغر عمره، لكن أفراح كان بداخلها هاجس آخر مختلف عن كل ذلك ولا يعلمه أحد، حتى هي حينما كانت تفرح بالعقل والمنطق كانت لا تجد سبباً مقنعاً لكي ترفض الزواج منه، لكنه حدس المرأة الذي تستشعره أحياناً دون أن تعرف ما هو السبب الحقيقي وراءه بعد.

على الجانب الآخر كان فتحي في غاية السعادة، إنه يوم عرسه، وعلى من، على أفراح تلك الفتاة التي كان يتحدث عنها الجميع ويضرب بها المثل في كل شيء، حيث الجمال الرباني، والتربية والخلق الرفيع، أفراح الفتاة التي خرجت من عباءة العادات والتقاليد وحطمت كافة الأفكار الرجعية والظلامية التي كانت تعيش فيها هذه القرية بل والقرى المحيطة بها أيضاً، أفراح تلك الفتاة التي سمع عنها كثيراً وراقب خطواتها كثيراً فيما مضى وحاول كثيراً أن يلفت انتباهها نحوه لكنه فشل لدرجة أنه ذات مرة قال عنها، إنها فتاة من شدة حيائها تشعر وكأنها ولدت تنظر أسفل قدميها وتسير في أعتى الشوارع ازدحاماً وكأنها تسير في الصحراء بمفردها، إنها حقاً آية في كافة تفاصيلها.

إن النشوة التي تتملك فتحي الآن لا يستطيع أن يقاومها لبضع دقائق حتى ينتهيا من استبدال ملابسهما، الأفكار الممزوجة وغير المتواصلة وغير

المتناغمة دائماً ما تأتي بنتائج عكسية، حقاً إن الشعور الذي يشعر به الآن فتحي معاكس تماماً عن ذلك الشعور الذي تشعر به أفراح، هو يرغب فيها بشدة كونها زوجته ونتاج حب كامن بداخله منذ فترة من الزمن لكنه فشل في التعبير عنه فيما مضى، هذا بالإضافة إلى رغبته كرجل في احتضان تلك الأنثى الفاتنة التي كانت تشغل بال الكثيرين، لكنه اختار الأسلوب الخاطئ لكي يعَبر لها عما بداخله من شعور وما يحمله من إحساس نحوها.

هم فتحي باحتضان أفراح مباشرةً بعد أول خطوة لها داخل غرفة النوم وهي ما زالت ترتدى فستان زفافها، ومن شدة خوفها من ذلك المصير الذي أرغمت عليه، ظنت أن ما يقوم به هو فعل همجي لا يقوم به إلا حيوان لا يمتلك عقل ولا يعي التصرف الصواب من الخطأ، وبشكل غير إرادي عبَّرت عن ذلك الشعور بكلمات مقتضبة:

- اهدى وبلاش همجية وشغل حيوانات.

كانت جملة قاسية للغاية على رجل في مقام وقيمة فتحي، ورد فعله كان يعبر عن غرور وشرقية ممتزجة بأفكار معقدة تنم عن جهل، فما كان عليه إلا أن صفعها على وجهها بشدة.

إنها المرة الأولى التي تصفع فيها منذ أن جاءت إلى هذه الدنيا، يا لها من بداية مأساوية في ظل ظروف غامضة، تركت أفراح الغرفة متوجهة نحو الحمام لكي تقوم باستبدال ملابسها في حالة غريبة جداً ومدهشة، لم تسقط أفراح دمعة واحدة كرد فعل على ما قام به فتحي، بل بالعكس تماماً، إن تلك الصفعة التي استقبلتها منه زادتها إصراراً وعزيمة على شيء

ما لا يعلمه أحد غيرها، كانت نظرات عينيها تدل على ذلك وخطواتها الثابتة نحو الحمام تعبر عن مدى قوتها وصلابتها ومدى استعداداتها لما هي مقدمة عليه.

على الجانب الآخر تابع فتحي خطواتها نحو الحمام وهو في قمة غضبه وما إن اختفت من أمام عينيه إلا وذهب يغير ملابسه وهو يعبر عما بداخله من غضب، فكل ما يخلعه يلقي به حوله بشدة، وكأنه ينتقم من ملابسه التي كان يرتديها، حتى حذاؤه لم يسلم من تلك النوبة الهستيرية التي انتابته، وما إن انتهى من استبدال ملابسه إلا وجلس على طرف الفراش وأشعل سيجارته وراح يأخذ منها شهيقاً ونفخ دخانها بكل قوة وعنف إلى أن انتهت في فترة زمنية قصيرة جداً ولم يكتف بذلك فأشعل سيجارة من الأخرى وألقى بالسيجارة المنتهية على الأرض بشكل فوضوي غريب، ولحسن الحظ كان قدوم أفراح على هذا المشهد فتوجهت مسرعة نحو تلك السيجارة التي على الأرض وأمسكت بها قبل أن تشعل السجادة الموضوعة على الأرض ونظرت نحوه وهى تكتم أنفاسها بنظرات حادة للغاية وكأنها تتوعده بشيء ما مجهول، بينما هو لم يعرها أي اهتمام، فقط نظرة استحقار غريبة ليس لها أي مبرر.

أخذت أفراح السيجارة من على الأرض وتوجهت إلى الخارج وبعد لحظات عادت وهي تحمل بين يديها طفاية السجائر ووضعتها أمامه على تلك المنضدة، ثم نظرت إلى ملابسه المبعثرة في كافة أرجاء الغرفة وأخذت نفساً عميقاً وكظمت غيظها وراحت تلملم أغراضه وتضعها في

الدولاب، حينما رآها فتحي تقوم بذلك حمل بين يديه الطفاية وخرج من الغرفة وهو يطلب منها أن تنتهي من ذلك وتقوم بإعداد كوب شاي له، وما كان عليها إلا الامتثال لما يريد.

إن الصدمات المتلاحقة التي حصلت عليها أفراح في الدقائق الأولى لها في حياتها الجديدة، كانت صعبة في حقيقة الأمر، فما إن خرجت من المطبخ وهي تحمل بين يديها كوب الشاي إلا ووجدت زوجها يضع مخدر الحشيش أمامه ويتناول منه بشكل طبيعي على عكس ما كانت تظن تماماً فهي تذكر أنه أخبرها فيما مضى أنه لا يتناول أي مواد مخدرة، وهو الآن يضع أمامه بعض المواد المخدرة بشكل عادي جداً ويتناوله بكل سهولة ويسر، تحجرت أفراح بعض الشيء أمامه وهى تنظر إلى ما يقوم به أثناء لفه لسيجارة الحشيش، أما هو فنظر إليها بلا مبالاة وأمرها أن تضع كوب الشاي أمامه وتتوجه نحو غرفة النوم وتتأهب لدخلتها، حتى لا يكون الأمر بشكل حيواني كما قالت.

تركت أفراح كوب الشاي أمامه وتوجهت نحو الغرفة وهي تفكر في مصيرها، إنه حقًّا ظلامي للغاية، ربما ستدفع الكثير تجاه تلك الجملة التي عبرت بها عن شعورها تجاه فتحي حينما قرر أن يحتضنها بشكل غير لائق، وأخذت تحدث نفسها داخل الغرفة وهى جالسة على الفراش في انتظار مصيرها المعلوم المجهول.

يا له حقاً من كائن أشبه بالحيوانات! هذه نتيجة جهل حقيقي، أنا من فعل ذلك بنفسه ولا يجب أن ألوم أحداً غيري، لكنه خانني وكذب

حينما سألته عن تناوله المخدرات، في حقيقة الأمر لم أقصد الإهانة حينما وصفت تصرفه بالحيواني، لكنه أثبت أن ذلك الوصف المجازي يتطابق مع تصرفاته بشكل فج، ماذا سوف أصنع الآن؟ هل أوضح له ما كنت أقصده؟ لا أظن أنه سوف يعي ما أقوله له حتى وإن كان لديه جزء قليل من الذكاء والعلم الذي يؤهله لفهم ذلك، فحينما سيدخل إلى تلك الغرفة سوف يكون مخدراً تماماً ومغيباً عن الوعي، ولن يعي أي شيء سوى تلك الرغبة الوحشية التي يكنها بين جوارحه نحوها، إنه تحول في لحظات بسيطة من كائن بشري إلى ذئب سوف يلتهم فريسته، عقله معطل ولا تحركه إلا شهوته نحو جسد امرأة في مسكنه، وهو الآن مطمئن سوف يتناوب على اغتصابي كما يحلو له الأمر، كنت أود أن أؤسس حياة جديدة بشكل أفضل مبنية على الثقة والتفاهم لكن في حقيقة الأمر هذه الأمنية أصبحت في حكم العدم الآن.

بعد دقائق من الحيرة مرت على أفراح كالدهر، دخل فتحي عليها وتوجه نحوها مباشرة وألقى بجسدها على الفراش، وتحول الأمر بينهما إلى ما يشبه بحالة اغتصاب حقيقية، ربما كان يظن فتحي أن أفراح تحاول مقاومته بالرغم من أنها في حقيقة الأمر كانت مستسلمة تماماً لمصيرها الذي اختارته، في حقيقة الأمر المشهد كان مأساوياً للغاية، أنثى مستسلمة بين يدي رجل يقبلها ويصفعها في ذات الوقت، إلى أن فضَ غشاء بكارتها.

في تلك اللحظة فقط تذكر أن تلك التي أسفل منه هي زوجته وأنها بكل الأحوال أنثى ضعيفة تنفجر دماء، أما أفراح فكانت دموعها تتسابق مع

دمائها ولا تدري أتصرخ من شدة الألم النفسي الذي لحق بها أم تصرخ من شدة الوجع والنزيف الذي أصيبت به، في كلا الأمرين هي تصرخ صرخات مكتومة حتى لا تجرح كبرياءها أمام ذلك الحيوان الذي ارتضت أن يكون زوجها.

استجمعت أفراح قواها وتوجهت نحو الحمام بعد أن هدأ النزيف قليلاً وكاد أن يتوقف بينما كان فتحي قد غادر الغرفة وعاد ليمارس هوايته المفضلة في لف سجائر الحشيش.

بداخل الحمام كانت أفراح تقف أسفل صنبور المياه وهى تحتضن جسدها ولا تستطيع أن تفرق بين دموعها والمياه التي تتساقط على جسدها ودمائها المختلطة بذلك كله، هذا كان الأمر الظاهر، أما في باطن الأمر، أغلقت أفراح عينيها أسفل صنبور المياه وذهبت بمخيلتها، تلقي بجسدها بين أحضان أخيها إسماعيل وتشكو إليه ذلك الحيوان الذي تزوجها، وما فعله بها وكيف انتهك عذريتها بشكل بشع، وتستدير لتحتضن أخاها إدريس وتشكو إليه كذب فتحي وكيف أخبرها أنه لا يتناول أي مواد مخدرة واكتشفت عكس ذلك، وتستدير لتحتضن والدها لكي تخبره عن ذلك الإيذاء والضرر النفسي الذي لحق بها عندما صفعها فتحي على وجهها في اللحظات الأولى لها بداخل مسكنه، وتلك اللحظات التي كانت تعيشها أسفل منه وهو يقوم باغتصابها حسب وصفها، وتستدير لتشاهد أمها وتنظر إليها بشدة وهي تبكي وتسألها: هل هذه العفة التي كنت تريدينها لي؟ هل هذا هو المصير وتلك هي الحياة الجديدة والمستقبل

الواعد؟ هل هذا ما تقودنا إليه العادات والتقاليد التي أرغمتني على احترامها والعمل بها؟ تستدير أفراح لتشاهد تلك الأيام الخوالي والجامعة وأصدقاءها وعزاء إدريس وجسده الملفوف بعلم مصر وبذته العسكرية، وإسماعيل والمسجد والهاتف الجوال ويده التي تمسك بها أثناء توجهها إلى الجامعة وسوق الملابس ودفتر التوفير والحساب الذي كان يحول عليه لها أموالها الخاصة، وذهاب أبيها إلى صلاة الفجر والمصنع الصغير واتصال إسماعيل وكافة الأشياء.

إنه حقًّا شريط حياة مر في دقائق معدودة حزينة وكئيبة للغاية وتوقف عن العرض حينما توقف تدفق المياه من فوق جسدها، أغلقت أفراح صنبور المياه وفتحت عينيها بشدة وكأنها بعثت من جديد، لكن الروح التي بداخلها قد تبدلت بروح شريرة ودافع الانتقام يملأ كل جوارحها، ارتدت ملابسها وخرجت من الحمام متوجهة نحو الغرفة أثناء ذلك نظرت إلى فتحي الذي كان ما زال جالساً على تلك الأريكة يقوم بإشعال سجائر الحشيش، لم تهتم أفراح بذلك الأمر، بل لم تعر فتحي أي اهتمام بالمرة، دخلت غرفتها وقامت بتصفيف شعرها وما إن انتهت إلا وتوجهت نحو الفراش على أمل أن تخلد للنوم لكن سرعان ما تبخر هذا الأمل سريعاً وجاء فتحي ليفسده بأسلوبه غير الآدمي بالمرة، ومجدداً أخذها بين أحضانه وراح يعاشرها بقسوة وكأنه تزوجها فقط من أجل إشباع رغبته الجنسية لا أكثر ولا أقل، أما أفراح فقد استسلمت لمصيرها سريعاً، وأصبحت بين يديه مجرد جسد بلا روح ولا إحساس، ماتت كل

المشاعر بداخلها، تم انتهاك جوارحها بجدارة، إلى أن أهلكهما التعب وخلدا إلى النوم.

في صباح اليوم التالي حضرت الأم برفقة زوجها لكي يطمئنوا على حال ابنتهم الوحيدة وكما تجري العادة في تلك البيئة، أخذت الأم المفرش الذي تم فض غشاء بكارة ابنتها عليه وراحت تعبر عن سعادتها بذلك عن طريق إصدار الزغاريد في كل أرجاء المسكن، كان ذلك كل ما يشغل الأم في المقام الأول، أما الأب فكان يحاول أن يطمئن على حالة ابنته النفسية، تبدو شاحبة، ربما لأنها لم تعتد على النوم خارج المنزل، أو لأن تجربة الزواج ثقيلة على إدراكها بعض الشيء، لكن سوف تعتاد هذا الأمر، كان هذا هو مبرر الأم على رأي الأب في ابنته بعد أن عادوا إلى المنزل.

مر الشهر الأول على أفراح الذي يسمى بشهر العسل، كانت أفراح على مدار هذا الشهر مجرد جارية لدى فتحي، وكان الأصعب من ذلك هو شخص فتحي ذاته، كانت كل يوم تكتشف فيه شيئاً جديداً يجعلها تندم على ذلك الاختيار ويزيد بؤسها كلما سمعته يتحدث في هاتفه إلى هؤلاء الأشخاص الذين يتعامل معهم في معاملاته التجارية، اكتشفت أن الفارق التعليمي الذي بينه وبينها سوف يصبح سداً منيعاً، وكانت الكارثة الحقيقية بعد الشهر الثالث من الزواج حينما بدأت آلام الحمل تتملك منها وتأكدت من ذلك حينما اصطحبها فتحي إلى الطبيب، بالطبع خبر الحمل ليس هو الكارثة إنما الكارثة بالنسبة لها تلك المكالمة الهاتفية التي سمعتها بين فتحي وأحد الأشخاص.

المصيبة التي لم تكن تخطر ببال أفراح أن يكون فتحي أحد تجار المواد المخدرة بل اكتشفت أنه من أكبر تجار المحافظة، اتضح ذلك لها عندما تحدث فتحي إلى ذلك الشخص بكل ثقة ظناً منه أن زوجته نائمة.

– اسمع، فلوس البضاعة تكون عندي خلال 3 أيام حسب الاتفاق اللي بينا، بعدها بساعة هايكون ليا تصرف تاني، هو إنت فاكر بتتعامل مع بقال! وبعدين فلوس إيه اللي إنت مش هاتقدر تلمها في 3 أيام، إنت عبيط سوق إيه اللي نايم، ده السوق الوحيد اللي ما بينمش، هو في حد النهارده ما بيشربش حشيش؟ دي العيال النهارده بتتفطم عليه.

ما سمعته أفراح بالنسبة لها ولأفكارها كارثة، إن زوجها يساعد في قتل الجميع بأعمارهم المختلفة، إن هذه المواد المخدرة تفسد الصحة وتؤثر على كافة أعضاء الجسم، هذا ما تعلمته من خلال الكتب الدراسية، لكن سرعان ما عادت تبتسم بسخرية شديدة من أفكارها التي تدور بخاطرها وتتذكر مقولتها:

«إن العلم الذي نتعلمه من خلال الكتب في المدارس والجامعات ليس له علاقة بالواقع نهائياً فعلم الواقع والحياة مختلف تماماً».

مر الأمر كغيره من الأمور، والمدهش أنها لم تفكر قط في الانفصال أو على الأقل أن تتحدث معه وتخبره بما لا يعجبها في أمره وأفعاله.

في حقيقة الأمر لقد تحولت أفراح إلى آلة تنفذ الأوامر وكل ما يطلب منها في صمت مريب لكن عينيها كانت تحمل معانٍ أخرى يصعب على كل من حولها أن يفك طلاسم فحواها.

الفصل الثاني العاشر

إننا في هذه الحياة مجرد أنفاس، حينما تبدأ نخرج معها إلى الحياة وحينما تتوقف نعود مرة أخرى إلى باطن الأرض حيث بدأت الحياة البشرية، إنها حكمة إلهية.

كانت أفراح في الأيام الأخيرة للحمل وكان الألم يزيد عليها يوماً تلو الآخر، وبالرغم من كل الآلام والمتاعب التي كانت تعيش فيها أفراح، كانت تسترق بعض الوقت لكي تراسل أخاها إسماعيل عبر الإنترنت ربما يجيب على رسالة لها وتطمئن عليه، وبالرغم من عدم الرد على مدار ما يقرب من عام لم تفقد أفراح الأمل في أن تطمئن على أخيها الكبير الذي انقطعت أخباره تماماً.

اشتد الألم على أفراح واتصلت بزوجها لكي يأتي وينقلها إلى المستشفى، لم يتأخر فتحي عنها كثيراً، جاء إليها بسيارته وأخذها وتوجها مسرعين إلى المستشفى، وعلى الفور دخلت إلى غرفة العمليات لكي تضع أول مولود لها، في أثناء ذلك تواصل فتحي مع أمه وبدورها تواصلت أم فتحي مع أم أفراح وحضروا جميعاً إلى تلك المستشفى التي تضع فيها أفراح مولودها الأول، وما

إن خرجت الطبيبة الموكلة بتوليد أفراح وأخبرتهم أنها وضعت فتاة إلا وقد غمرت السعادة الجميع، لم يمر الكثير من الوقت ورن هاتف سعيد وهم ليستقبل المكالمة، نظر إلى الهاتف فوجد أن المكالمة من رقم دولي، انقبض قلبه بعض الشيء ووضع الهاتف على أذنيه وأجاب:

- آلووو.

- آلووو أبو إسماعيل معي؟

- أيوه أنا أبو اسماعيل .. مين حضرتك؟

- أنا والد زوجة ابنك إسماعيل.

كانت تلك الإجابة كفيلة برسم كل علامات الدهشة والتعجب على وجه سعيد في أقل من لحظات، لكنه تابع:

- زوجة ابني؟ أهلاً وسهلاً

- يا مرحباً بيك يا حاج.

- إسماعيل فين؟

- البقاء لله.

هذه العبارة كانت كفيلة بأن تجعل من سعيد كذلك الجبل الذي ينهار في لحظات معدودة، وهو يردد بينه وبين نفسه، لا إله إلا الله، لا إله إلا الله، أصاب الخوف والذهول كل المحيطين به مما دفع فتحي إلى أن يمسك الهاتف بدلاً عنه ويكمل المكالمة، حينها عرف كيف توفي إسماعيل، لقد أصيب بمرض خطير مما جعله فاقد الوعي لمدة ما يقرب من عام، حاول الأطباء كثيراً إنقاذ حياته لكنهم لم يتمكنوا من ذلك، كان اتصال والد زوجته بهم لكي يخبرهم

بوصيته، لقد أوصى إسماعيل أن يدفن بجوار أخيه إدريس وألا يفرضوا على أفراح شيئاً ويتركوها لكي تختار هي مصيرها ومستقبلها بعد أن تنهي تعليمها، تحدث فتحي مع والد زوجة إسماعيل لكي يتفقوا على الإجراءات والترتيبات اللازمة لإجراء عملية نقل الجثمان، الجو العام في المكان كان في غاية الصعوبة، ما هذه المشاعر المختلطة والمتناقضة في نفس الوقت، سعيد وسناء في حالة حزن على فقدان ابنهما الأول، وفتحي وأمه في حالة سعادة لإنجاب أفراح أول مولودة لهم، دخلت أم فتحي إلى أفراح لكي تطمئن على حالتها الصحية وتبارك لها مولودتها، وظل فتحي واقفاً مع سعيد وسناء كي يواسيهم في مصيبتهم، بداخل الغرفة بدأت أفراح في التساؤل عن سبب عدم وجود أمها وأبيها، ظنت أن فتحي لم يخبرهما، لكن أم فتحي حاولت أن تحتوي الأمر وأخبرتها أنهما حضرا إلى المستشفى ولكنهما قد ذهبا ليأتيا ببعض الأغراض والمستلزمات وسوف يحضران على الفور.

في الخارج.. لملمت الأم ما تبقى فيها من قوة وقامت وهي تمسك بيد لأم زوج ابنتها متوجهتين نحو غرفة أفراح لكي يطمئنا على صحتها بعد الوضع، أما سعيد فقد التزم الجلوس مكانه وظل يتمتم بذكر ربه حتى يصبره على مصيبته التي لحقت به، إلى أن استجمع قوته هو الآخر وتوجه إلى أفراح، ربما آلام الوضع قد خففت من الأمر عليهم جميعاً فكانت سبباً في عدم ملاحظة ذلك الحزن الذي لحق بالجميع رغم أنهم يتظاهرون بالسعادة والفرح.

طلبت الطبيبة المتابعة لحالة أفراح من الجميع الخروج وتوفير الجو اللازم لها لكي تستريح وكأنها طوق النجاة الذي ألقي عليهم وهم في وسط البحر

يغرقون، أخبرتهم الطبيبة أن أفراح سوف تخضع للملاحظة هي والمولودة مدة أربع وعشرين ساعة ومن بعدها يمكنهم العودة إلى المنزل، كانت هذه المدة كافية لكي يتم ترتيب أوراق العائلة التي انفرط عقدها، فمن الصعب أن تعرف أفراح خبر وفاة إسماعيل الآن نظراً لحالتها الصحية، على الجانب الآخر يجب الترتيب مع والد زوجة إسماعيل ووزارة الخارجية لكي يتم نقل جثمان إسماعيل إلى أرض الوطن ويتم دفنه بجوار أخيه إدريس تنفيذاً لوصيته.

اتفق الجميع على عدم إخبار أفراح بالحدث وبعد صلاة الفجر مباشرة توجه فتحي مع الحاج سعيد إلى مقر الخارجية لكي ينهوا الإجراءات اللازمة لنقل الجثمان وتم التواصل مع والد زوجة إسماعيل التي أصرت أن تحضر مع الجثمان إلى أن يوارى الثرى، وما إن انتهت الإجراءات إلا وعاد فتحي والحاج سعيد إلى القرية مرة أخرى حتى لا تشعر أفراح بأي شيء لحين أن تسترد عافيتها، وقبل أن تغادر أفراح مبنى المستشفى كانت قد اتفقت مع فتحي على اختيار اسم مولودتهم الأولى وقد استقرا على أن يكون اسمها صفاء، لم تكن تعلم أفراح سر اختيار هذا الاسم وسر التمسك به، لكنه أخبرها أن هذا الاسم هو اختيار والدها سعيد وهو الذي طلب منهم أن يطلقوا على مولودتهم هذا الاسم، وفي الحقيقة كان اختيار اسم صفاء من أجل إسماعيل لأن زوجته التي تزوجها تحمل نفس الاسم.

مرت ثلاثة أيام على مولد صفاء، وفي صباح اليوم الرابع توجَّه فتحي بصحبة الحاج سعيد وبعض أفراد العائلة إلى المطار لكي يستقبلوا جثمان إسماعيل الذي حضر بصحبة زوجته وابنه سعيد الذي يبلغ من العمر عامين

فقط ووالد زوجة إسماعيل، وقف سعيد في حالة من الذهول، إن ما يحدث له في حقيقة الأمر لا يقوى على العقل البشري أن يستوعبه، كيف له أن يستوعب أن إسماعيل قد مات في الخارج بعد أن تزوَّج وأنجب طفلاً يبلغ من العمر عامين الآن وهو لا يعلم شيئاً عن كل ذلك، وكأن الرجل يعيش في حالة من اللاواقع، يبدو وكأنه غرق في النوم وتملَّك منه كابوس فظيع، على كل الأحوال هذا هو الواقع، لقد رحل إسماعيل وجاء لكي يدفن وحضر معه ابنه وزوجته ووالد زوجته ليشهدوا جنازته، كان فتحي قد أنهى كافة الإجراءات اللازمة وتم وضع الجثمان بداخل سيارة نقل الموتى وحمل سعيد الكبير سعيد الصغير بين ذراعيه وأخذ زوجة ابنه ووالدها واستقلوا السيارات متوجهين نحو مدافن القرية مباشرة.

في المدافن كانت القرية عن بكرة أبيها بانتظار الجثمان إلا أفراح التي ما زالت لا تعلم عن الأمر شيئاً، واتشحت القرية بالسواد في عزاء إسماعيل الذي كان يفوز بحب الجميع، كان الأمر بمثابة الصدمة لهم جميعاً، وزاد من صعوبة الأمر زوجته وابنه ووالد زوجته، كان الأمر مفاجأة للجميع، إن أمر وفاته كأمر زواجه لا يعرف به أحد قط من أهل القرية حتى أقرب الناس إليه لا يعلم عنه شيئاً إلا صدفة كما هو واقع الأمر.

في المساء كان العزاء، اجتمع أهل القرية جميعا لكي يؤدوا واجب العزاء في ابن قريتهم الذي بنى لهم المسجد، ذلك الابن البار الذي كان يتمتع بحب الجميع وكان الجميع من أهل القرية يدعون له ويتخذون منه مثلاً على الإصرار والعزيمة وتحمل المسئولية والنجاح في ظل أصعب الظروف،

كان أكبر دليل على ذلك ابنه وزوجته وأبوها، يبدو عليهم الثراء من هيئتهم الخارجية والسيارة التي يستقلونها والعقل والمنطق يقول إن إسماعيل إن لم يكن على نفس القدر والمستوى فما كان ذلك الرجل قد زوجه ابنته، كان ذلك تفكير أهل القرية وحديثهم الجانبي حول إسماعيل بالإضافة إلى موقفه الذي اتخذه تجاه أخته أفراح وإصراره على أن تكمل تعليمها نزولاً على رغبتها محطمة بذلك كافة العادات والتقاليد التي تحكم أهل هذه القرية.

كانت أفراح تجلس بمفردها في مسكنها وتنتظر عودة فتحي الذي تأخَّر عليها بعض الشيء، وعلى غير العادة قامت بإجراء اتصال هاتفي لكي تطمئن عليه، سمعت أثناء رده صوت القارئ في العزاء وحينما سألته عن ذلك الصوت أخبرها أنه في عزاء والد أحد أصدقائه لا تعرفه في إحدى القرى المجاورة لهم.

بعد انتهاء مراسم العزاء انتقل سعيد ووالد زوجة ابنه إلى منزله، كان والد صفاء يريد أن يأخذ ابنته وطفلها ويعود إلى القاهرة حتى ينزلوا في أحد الفنادق لكن سعيد رفض ذلك بشدة، وأخبره بأن هذا الأمر لا يجوز أن يفكر فيه من الأساس قائلاً: كيف تنزل في فندق وابنتك لديها منزلها هنا وحفيدك يمتلك قرية بأكملها، إنه أمر لا يجوز!

على الجانب الآخر كانت صفاء تمكث في المنزل بانتظار انتهاء مراسم العزاء وعودة أبيها لكي تعرف منه ماذا سوف يفعلون بعد أن قاموا بدفن زوجها، وحينما عاد سعيد ووالد صفاء إلى المنزل، طلب سعيد من زوجته أن تقوم بتحضير العشاء لزوجة ابنه وأبيها بينما هو أخذ حفيده بين يديه وأخذ يقبله

وهو نائم وضمه إليه بشدة وهو يحبس دموعه ويكظم آلامه وأوجاعه، ثم سألهم لماذا لم تخبروني بأمر مرضه، أجابته صفاء بأن كل ما حدث كان بناء على رغبة إسماعيل، لم يكن سعيد يعلم أن ابنه كان يمتلك شركة من أهم شركات البناء والتعمير في تلك الدولة، قصَّت له صفاء كل يوم قضاه إسماعيل في بلادها، منذ أن كان عاملاً مروراً بأن أصبح شريكاً في شركة صغيرة إلى أن أصبح مالكاً لواحدة من أكبر الشركات المتخصصة في مجال عمله، وقصَّت له كيف تعرف عليها وكيف تزوجها وأخبرته بكافة التفاصيل التي كان يجهلها.

ثم سألت عن أفراح التي أحبتها كثيراً من كثرة حب إسماعيل لها، فأخبرها سعيد أن أفراح قد تزوجت منذ عام تقريباً أي منذ أن انقطعت أخبار إسماعيل عنا، والحكمة الإلهية أن تنجب مولودتها الأولى يوم أن تلقينا خبر وفاة إسماعيل ونظراً لحالتها الصحية حينها فضَّلنا ألا نخبرها بما حدث لأخيها الذي كان بمثابة كل شيء لها في تلك الحياة، في حقيقة الأمر أعترف لكي يا زوجة ابني العزيز، أن إسماعيل لدى أفراح هو أغلى من والدها وأمها على قلبها، ولا أدري كيف سأخبرها بهذا الخبر، لذلك سوف أترك لك هذا الأمر كي تقومي به، ولا تخشي لقد مهدت للأمر وطلبت من زوجها أن يطلق اسمك على مولودتها الأولى، أظن أن هذا الأمر سوف يحد من الفاجعة بالنسبة لها.

إنه طلب غريب للغاية ذلك الذي يطلبه سعيد من زوجة ابنه، لكنها تقبّلت الأمر، وفي صباح اليوم التالي أخذ سعيد زوجة ابنه ووالدها وحفيده وتوجهوا جميعاً إلى أفراح في مسكنها، وما إن شاهدت أفراح زوجة أخيها ووالدها إلا وانتابها شعور غريب، وعندما علمت منهم أنها زوجة أخيها إسماعيل وأن

الطفل الذي تحمله بين يديها هو ابن أخيها ويدعى سعيد زاد الخوف والقلق علي وجهها وبدأت تأخذ أنفاسها بصورة متلاحقة وهي تسأل عن أخيها، لكن صفاء استشعرت ما سوف يحدث فأخبرتها أنه سافر من فترة في رحلة عمل وسوف يعود إلى مصر مباشرة أواخر الشهر، وهو من أرسلها إلى هنا لكي تكون في استقباله وتقديم التهاني لك على الزواج، وأخبرك أن سبب عدم رده على رسائلك هو أن المكان الذي يعمل به في وسط الصحراء وما زالت الخدمات لم تصل إليه بعد.

كانت أفراح تعلم أن زوجة أخيها تكذب عليها لكنها نظرت إليها برضا وحب، اختلفت أفكارها تجاه صفاء فجأة وعلمت قدر الحب الذي بداخلها نحوها ثم أخذت نفساً عميقاً وهى تبتسم ابتسامة حزينة وقالت:

– الآن فقط علمت لم كان الإصرار على أن تطلقوا اسم صفاء على مولودتي الأولى، كم أنت جميلة يا زوجة أخي العزيز! حقاً أحسن أخي الاختيار، بنت أصول وذات حكمة وأدب! والآن يا من رافقت أغلى ما في الحياة أخبريني، كيف فارق الحياة، لا تكذبي يا زوجة العزيز فأنت مثله تماماً لا تجيدين إلا الصدق.

لم يكن أمام صفاء في تلك اللحظة إلا أن تنهمر في البكاء وهي تحتضن أفراح، وما إن انتهت تلك الحالة إلا وراحت صفاء تخبرها بكافة التفاصيل منذ أن أصابه المرض إلى أن فقد الوعي حتى توفي في نفس اليوم الذي وضعت فيه مولودتها الأولى.

تقبلت أفراح الأمر وشكرت زوجة أخيها على كل ما قدمته له في محنته،

وشكرتها على مراعاتها لمشاعرها في بداية الأمر وانتهى اللقاء الأول بينهما، وحينما عاد فتحي في المساء قدمت له أفراح الشكر على كل ما قدمه من مساعدة أثناء نقل جثمان أخيها إلى أن انتهت مراسم العزاء، لكن رد فتحي كان على غير المتوقع، لقد أخبرها أنه فعل ذلك من أجل أخيها الذي عرف عنه طيب أصله ومن أجل ذلك الرجل المكلوم الذي لا يقوى على التصرف، وعموماً إنه أمر وانقضى ولا يستحق الشكر، فهذه عادات لا يجب أن نتخلَّى عنها، تقبلت أفراح رد فعل زوجها البارد والذي يدل على الغرور الذي بداخله، مر الوقت سريعاً وجاءت صفاء إلى أفراح لكي تودعها حيث قرَّرت العودة إلى موطنها مجدداً بعد أن جلست مع أفراد أسرة زوجها ما يقرب من خمسة عشر يوماً منذ جاءت، وبالفعل سافرت، وبعد سفرها بأسبوع واحد فقط، فارق سعيد الحياة من شدة الحزن الذي كان يحمله بداخل صدره لكن ميتته كانت راضية حقاً، لقد توفي أثناء صلاة الفجر بداخل المسجد.

لم يتبق من الأسرة إلا سناء التي التزمت منزلها تتَّشح بالسواد على كل ما أصابها، أما أفراح فقد فقدت كل شيء، كل أركان الغرفة قد تهدمت ولم يتبق إلا جدار واحد فقط آيل للسقوط من شدة الأحزان والأوجاع التي لحقت به، كانت تظن أفراح أن فتحي سوف يكون في الغرفة البديلة لكنه لم يغفر لها غلطتها الأولى التي كانت عن دون عمد، تأزَّمت العلاقة بين أفراح وفتحي حينما وضعت مولودتها الثانية وكانت أنثى أيضاً، وبمجرد أن علم بذلك بدأت المعاملة لها ولبنتيها تزيد سوءاً نظراً لشغفه ولهفته على الولد، وكأن أفراح هي المتحكمة في نوع الجنين الذي تنجبه، تغيرت الحياة بينهما بشكل

ملحوظ، أصبحت أفراح بالنسبة له خادمة لا أكثر، مرت خمسة أعوام على ذلك، الحياة روتينية بشكل ملحوظ حتى وإن عاشرها لبضع دقائق في الليل يكون ذلك ناتجًا عن غيابه عن الوعي وعدم وجود البديل في ذلك الوقت لا أكثر ولا أقل، بدأت الحياة تزداد صعوبة والمشاكل تتراكم والخلافات تدب فيما بين فتحي وهؤلاء الأشخاص الذين يتعامل معهم سواء في تجارة الأدوات المنزلية أو في تجارة المواد المخدرة، أصبح لديه أعداء كثر في كافة أرجاء المحافظة، أهمل كل شيء حتى بنتيه اللتين هما من صلبه ويحملان اسمه، كانت أفراح تهرب من تلك المتاعب من وقت إلى آخر لكي تجلس مع أمها في المنزل وتوفر لها متطلباتها لبضع أيام متعللة بمرضها وكبر سنها، بينما فتحي يكون في قمة سعادته عندما تقوم هي بفعل ذلك، كان يحول المنزل إلى ماخور يملأه بالسكر والعربدة، كل أنواع الفجور والرزيلة كان يمارسها بداخل منزلها في غياب أفراح، والمضحك أنها كانت تعلم بذلك لدرجة أنه في إحدى المرات نسيت عاهرة من تلك التي يجلبهن إلى المنزل ملابسها الداخلية فأعطتها له أفراح كي يعيدها إليها.

لقد انتهى كل شيء فيما بينهما ولم يتبق إلا الفراق الأبدي، لكن هذه المرة لن تغادر أفراح الحياة لتلحق بأبيها وإخوتها، ربما سوف تكتفي بالمكوث في منزل أبيها تراعي بناتها وأمها المريضة.

الفصل الثالث العاشر

إن المؤشر الرقمي الموجود بداخل القنبلة المؤقتة لا يتوقف، العد التنازلي به يعمل في سرعة هائلة، لن تستطع كتائب خبراء المفرقعات في العالم أجمع أن تنقذ الهدف أو أن تبطل مفعول هذه القنبلة، لأنها وببساطة شديدة تم زرعها بداخل جسد كائن حي يدعى أفراح.

تلك الفتاة التي تم اغتصاب كافة جوارحها في ليلة كان من المفترض أن تكون ليلة عمرها كأي فتاة بريئة تحلم أن تصبح عروسة، لكنها وللأسف الشديد وقعت في يد ذئب تناوب على اغتصابها على مدار عشرة أعوام متتالية، نعم، لم تذق أفراح يوماً طعم السعادة الزوجية على مدار تلك الفترة الزمنية، لم تستطع أن تتذوق لذة الإحساس وهي بين يدي زوجها، لم تشعر يوماً أنها أنثى في عصمة رجل، فقدت كافة المشاعر التي تمثل حقاً لها في الشريعة الإلهية التي شرعها الله لأي أنثى متزوجة من رجل يعي هذه الكلمة.

في حقيقة الأمر كانت أفراح منذ الليلة الأولى لها داخل هذه الحجرة تشعر

وكأنها جاءت إلى هذا المكان لكي يتم اغتصابها بشكل رسمي ليس أكثر، كانت بمثابة فتاة الليل التي يخلو إليها ذلك العربيد الذي يدعى الرجولة ولا يعلم أي شيء عن أساسيات تلك الحياة، لذلك وجب أن تعلنها صريحة للعامة، وعلى مرأى ومسمع من الجميع.

الحياة الزوجية ليست امرأة في الفراش تخلو بها كلما ارتفع لديك مؤشر هورمونات الجنس، الزوجة سكن وسكينة وراحة بال لا يدركها إلا الرجل الحقيقي الذي يعي كلمة رجل.

تركت أفراح منزل فتحي وهي على يقين أن الذهاب الآن أصبح بلا عودة وأن المكتوب لا مفر منه، قررت ألا ترضخ لكل هذا الكم من الإهانة والذل وعدم الشعور، في حقيقة الأمر فإن لحظة الوفاة الحقيقية للزوجة حينما يأتي إليها زوجها بامرأة أخرى تشاركها نفس الفراش لمدة ساعات قليلة ثم ترحل، إهانة لا توصف حينما تترك تلك الساقطة قطعة من ملابسها الداخلية على فراش الزوجة التي تحملت الكثير، لكن، حينما تصل الأمور إلى هذه الدرجة وحينما يصبح رد الزوج بكل هذه البجاحة يجب أن تحافظ الزوجة على ما تبقى لها من كرامة كأنثى.

بالفعل هذا ما فعلته أفراح، أخذت بناتها وتوجهت إلى منزل أبيها وما إن دخلت على أمها إلا وسألتها عن تلك الحقيبة التي في يدها، فأخبرتها أفراح بما حدث، كان رد فعل سناء غريبًا للغاية، لقد طلبت منها أن تطرد فكرة الطلاق نهائياً من رأسها وتعود إلى بيتها، تعللت بأن بناتها في حاجة إلى أبيهم، ربما كانت كلمات الأم هي اللحظات الأخيرة التي تشير على موعد

الانفجار، نظرت أفراح إلى أمها وهي في قمة غضبها ثم انفجرت قائلة:

هل حقاً تطلبين مَّني أن أعود إليه بعد ما أخبرتك بأنه خائن وزانٍ ولا يتقي الله في أهل بيته ولا بناته، إذن دعيني أكمل لك ما تجهلينه عن زوجي ابن الأكابر ذي الحسب والنسب والصيت، كنت كما يعلم كل العامة أظنه يعمل في مجال الأدوات الكهربائية والمنزلية فقط، لكني اكتشفت أن ذلك العمل مجرد ستار يخفي خلفه عمله الحقيقي، أتدرين ماذا يعمل في حقيقة الأمر؟ إنه واحد من أكبر مروجي المخدرات على مستوى المحافظة إن لم يكن على مستوى الجمهورية، لك أن تتخيلي يا أمي، أنا ابنتك التي تمردت على كافة العادات والتقاليد وذهبت إلى الجامعة وأصبحت مثلاً يحتذى به لدى الجميع من أهل القرية وقدوة لكافة الفتيات أكون زوجة رجل يتاجر في المواد المخدرة ويقتل أبناء بلدي بتلك السموم، ماذا أصابك يا أمي؟ هل تبحثين عن رد أو مبرر تحاولين إقناعي به في العودة مجدداً، سوف أعفيك من مهمة البحث عن مبرر لذلك، ولكن ما هو قولك في فتاة ليلة عرسها يتم صفعها وتجريدها من ملابسها وهتك عرضها وكأنها فتاة كانت تسير في طريق مظلم ووقعت في يد قاطع طريق لم ير أنثى قط، لم يكن يعاشرني كزوجة بل كان يغتصبني كعاهرة تمتهن معاشرة الرجال، هل لديك ما تقولينه في ذلك أم ستكتفين أيضاً بالصمت؟ أخيراً ما هو قولك في رجل اعتاد أن يرسل زوجته إلى بيت أبيها يومين في الأسبوع على مدار عام كامل لكي يأتي بامرأة غيرها ليضاجعها في فراشها؟ ومن بجاحته أنه يترك ملابسها الداخلية لي على الفراش لكي أقوم بحملها أثناء تنظيفي للغرفة،

هل لديك مبرر لذلك؟ أخبريني ماذا صنع لي يجعلني أسامحه وأعود وأتقبل تلك الحياة المهينة مجدداً، لا شيء إلا الموت، نعم لقد اغتال كل جوارحي منذ اللحظة الأولى لي في منزله، وبالرغم من ذلك حاولت أن أصمت إلى أن جاءت اللحظة التي لم أستطع فيها مقاومة الألم، وسقطت، هل هناك ميت يعود للحياة بعد عشرة أعوام من دفنه يا أمي؟

لم تجد الأم كلمات ترد بها على ابنتها التي كانت تجلدها بالكلمات الموجوعة، للمرة الأولى لم تخش أفراح غضب أمها وتحدثت بكل قوة ووجهت لها الاتهامات غير المباشرة عن كل ما لحق بها من أذى، لكن في لحظة ثورتها نظرت في عين أمها وشاهدت الضعف وقلة الحيلة والشعور بالذنب فتوقفت عن الحديث وابتسمت قائلة:

- أمي، أنتِ النعمة التي تبقت لي في هذه الحياة، وقد اتخذت قراري بأن أرعاكِ وأضعك تاجاً على رأسي حتى آخر يوم في عمري، حفظك الله لي يا أمي، فأنا لم يبق لي غيرك سنداً وظهراً صلبًا يقويني على متاعب الأيام القادمة.

ثم قبلت جبهتها وخلدوا جميعاً إلى النوم.

مر الشهر الأول على مكوث أفراح وبناتها في منزل أبيها مع أمها التي ظهر عليها كبر السن وبدأ المرض يتملكها بشكل ملحوظ، لم يكن هناك ما يوحي بأن الأمور بين أفراح وزوجها فتحي سوف تستقيم أو تعود مجدداً حتى ولو بالشكل الروتيني المعتاد في تلك البيئة، لقد عزمت الفراق وهو زاد من طغيانه واستهتاره واللامبالاة، ربما نسي تماماً أن له زوجة وأبناء، كل

ما يفعله هو تجارته المعلنة في الصباح وممارسته لترويج وتجارة المخدرات في المساء، وآخر الليل يعود بإحدى الساقطات إلى منزله ليقضي معها وقتاً ممتعاً يعوضه عن غياب زوجته الكئيبة التي لا تستحق هذا النعيم الذي تعيش فيه، من وجهة نظره بالطبع.

في صباح اليوم الأول من الشهر الثاني على الفراق كان بمثابة نقطة فاصلة في حياة أفراح، إنه اليوم الأول لها في العام الحادي عشر من زواجها، لكنه أيضاً كان يوماً مثيراً للغاية، لقد استيقظت القرية على خبر مقتل فتحي زوج أفراح داخل غرفة نومه وعلى فراشه، إنه حدث جلل في حقيقة الأمر، من يجرؤ على فعل ذلك، انتشر الخبر كالنار في الهشيم إلى أن وصل إلى أفراح في منزلها، المرة الأولى التي تتحرك فيها مشاعرها تجاه ذلك الرجل الذي عقد قرانه عليها منذ أحد عشر عامًا مضت وأنجبت منه بنتين، المدهش في الأمر أن الخبر حينما وصل إلى أفراح صارت ذات مشاعر متضاربة لا تعرف من ملامح وجهها شيئًا، هل هي حزينة على خبر مقتله أم هي سعيدة بذلك لأن القدر قام بإنقاذها منه، إن أول شيء تذكرته حين سمعت خبر مقتله تلك الصفعة التي تلقتها على وجهها ليلة دخلتها عليه، ثم تذكرت أيضاً، ذلك اليوم الذي وقف فيه بجوار والدها يتابع إجراءات نقل جثمان أخيها إسماعيل ودفنه، ثم أخذت الصور تمر أمام عينيها كشريط فيلم سينمائي، تتذكر وتبكي وهى تتحمل آلام مضاجعته لها وقسوته عليها ومعاملته السيئة، وصور أخرى تحمل صور الزفاف والعرس، وصور لها وهى تسمعه أثناء حديثه في الهاتف وهو يحدث تاجر المخدرات ويهدده

بالقتل، وأخرى وهي تلملم الملابس الداخلية لتلك الساقطة التي كانت تعاشر زوجها على فراش نومها، كلها مشاعر متضاربة وصور مأساوية ولحظات يصعب على أفراح أن تتحمل عناء تذكرها، لكنه العقل، العقل الباطن وما يحويه من ذكريات يقوم باسترجاعها مباشرة بشكل لا إرادي دون أن يكون هناك تدخل من العقل البشري في ذلك، سبحان من خلق الإنسان واختص الحكمة لذاته.

اتشحت أفراح بالسواد وتوجهت إلى منزل زوجها فهي لا زالت في عصمته، وما زالت تحتفظ بأصلها وتعي ما يجب أن تقوم بفعله في ذلك الموقف الأليم، عندما وصلت إلى المكان كان رجال البحث الجنائي قد انتهوا من عملهم ووضعوا جثة فتحي داخل سيارة الإسعاف وسوف يهمون بالمغادرة، أوقفها احد العساكر المكلفين بحراسة العقار لكنها أخبرتهم بأنها زوجة القتيل ويحق لها مشاهدة جثة زوجها، سمعها ضابط المباحث المكلف بالتحقيق في مقتل فتحي وأمر العسكري بأن يتركها حتى تمثل أمامه وما إن وصلت إليه إلا وجرى بينهما ذلك الحديث المقتضب:

- إنتي مراته؟
- أيوه يا بيه.
- كنتي فين وقت الحادثة؟
- كنت في بيت أهلي .. بقى لي شهر.
- ليه؟
- كل البيوت فيها مشاكل يا بيه.

- طيب هاتيجي معايا القسم عايز أسألك كام سؤال كده.
- وماله يا بيه.

وبالفعل انتقلت أفراح مع الضابط إلى قسم الشرطة، وتحركت سيارة الإسعاف بجثة فتحي نحو المشرحة لكي يقوم رجال البحث الجنائي باستكمال عملهم، بداخل مكتب الضابط المكلف بالبحث في القضية جلست أفراح أمام الضابط الذي أخذ يطرح عليها الأسئلة وأخذت تجيب بثبات شديد، وما إن انتهى إلا وأخبرها بأن النيابة سوف تقوم باستدعائها مجدداً لتسألها، ثم عادت إلى المنزل وأخذت تحكي لأمها ما جرى لها في قسم الشرطة، والمدهش في الأمر أنها كانت تتحدث إلى الجميع بحالة من الثبات الانفعالي الشديد، وكأن ذلك القتيل يمثل لها شخصاً عابراً، لا قيمة له في حياتها، مجرد رجل تعرف عنه بضع معلومات عامة وتخبرها إلى ضابط المباحث بشكل عادي جداً.

في صباح اليوم التالي أرسلت النيابة في طلب أفراح بعد أن قام رئيس النيابة المكلف بالتحقيق في القضية بإصدار تصريح بدفن الجثة وذلك بعد الاطلاع على التقرير المبدئي للمعمل الجنائي بعد تشريح الجثة والذى جاء فيه بأن القتيل تلقى ما يقرب من اثنتين وخمسين طعنة في أنحاء متفرقة بالجسد، كان بينها عدد ست طعنات نافذة في الصدر، واثنتا عشرة طعنة في البطن، مما أدى إلى تهتك الكبد وإصابة القلب بطعنات مباشرة، كما جاء أيضاً في تقرير المعمل الجنائي بأن الملاءة التي وجدت على السرير تحمل دماء القتيل كما لوحظ أن هناك بقعة دم قديمة على تلك الملاءة يصعب تحديد

نوع فصيلتها نظراً لمرور فترة زمنية كبيرة عليها، كانت تلك الملحوظة لافتة للانتباه بعض الشيء لدى رجال المعمل الجنائي، لكنها ما زالت دون جدوى لدى رئيس النيابة المكلف بالبحث في القضية.

حضرت أفراح إلى سرايا النيابة برفقة أمها وجلستا أمام رئيس المباحث الذي أخذ يوجه لهما الأسئلة بشكل روتيني للغاية، سألها عن تلك الأسباب التي دفعت أفراح إلى ترك المنزل لمدة شهر كامل، وأجابته بكل صراحة دون التحفظ على أي شيء من الحقيقة، وأخبرته بأعمال زوجها الخفية في تجارة المخدرات أيضاً كما أخبرته عن حبه الشديد لممارسة الجنس، والأسباب التي دفعتها لاتخاذ قرار الانفصال بلا رجعة، تم تسجيل كل شيء واقتنع رئيس المباحث أن ذلك القتيل يستحق القتل على كل هذه الأفعال المشينة لكن تبقى شيء واحد فقط، من هو القاتل؟ ذلك ما يجب البحث عنه، وقبل أن يصرف رئيس المباحث أفراح وأمها من سرايا النيابة بعد أخذ أقوالهما تذكر تلك الملحوظة التي جاءت في تقرير المعمل الجنائي وما كان عليه إلا أن يسأل من باب الروتين ليس إلا، أخرج الملاءة ووضعها أمامهما وسأل عن مدى معرفتهما بها، ردت الأم بتلقائية شديدة وهي تنظر بدقة إلى الملاءة وتتفحصها قائلة:

– الملاية دي بتاعت بنتي، دي اللي كانت مفروشة على سرير أفراح ليلة دخلتها.

الإجابة كانت كفيلة بأن تجذب انتباه رئيس النيابة إلى شيء ما جديد يجهله، وكانت كفيلة أيضاً بأن تبدل ملامح أفراح الواثقة إلى حالة من

القلق والترقب.

– نعم، يعني بقعة الدم القديمة دي بتاعت أفراح؟

ردت أفراح وهي تحاول أن تتدارك الموقف:

– آه فعلاً، دي الملاية بتاعت ليلة الدخلة، بس إيه اللي جابها البيت عندي، دي أمي جت خدتها يوم الصباحية.

– ده السؤال اللي عايزك إنتي يا أفراح تجاوبيني عليه.

– تقصد إيه يا بيه؟

– قتلتي جوزك ليه يا أفراح؟

– إنت بتقول إيه يا بيه، أنا ما قتلتش جوزي وما ينفعش أعمل كده مهما كان.

– بس بعد كل اللي إنتي حكيتيه ده ينفع تقتليه.

– لا يا بيه مستحيل، ده مهما كان أبو بناتي، وزي ما قولت لحضرتك جوزي كانت له علاقات كتير مشبوهة، وبعدين يا بيه أنا لو عايزة أقتل جوزي هاستنى العمر ده كله ليه؟ وهاستحمل الذل والإهانة دي ليه؟ لا يا بيه، أنا عمري ما أعمل كده، وكان أسهل عليَّ بدل ما أقتله وأشرد بناتي، إحنا زي ما دخلنا بالمعروف نخرج بالمعروف، وده اللي حصل وسيبت له البيت.

في تلك اللحظة يشير إلى الكاتب الذي يجلس بجواره ويكتب أقوالها بأن يتوقف عن الكتابة ثم يتحدث لها.

– شوفي يا أفراح، أنا بكلمك دلوقت بشكل شخصي، أنا كنت هاصرفك

بعد ما أخدت أقوالك، بس الملاية دي دليل عليكي، وهو اللي حطك محل اتهام، وعلشان أبقى صريح معاكي، هو مش دليل قوي وممكن أي محامي لسه متخرج من كلية حقوق يخرجك منها، بس أنا لازم أحجزك على ذمة التحقيق، اكتب يا ابني، تحبس المتهمة أربعة أيام على ذمة التحقيق.

وبالفعل يتم حبس أفراح أربعة أيام على ذمة التحقيق وتصاب الأم بحالة من الحزن والصدمة الشديدة جراء ما حدث، فهي الآن السبب الحقيقي في حبس ابنتها الوحيدة، في المساء استقبلت الأم مكالمة هاتفية لم تكن تتوقعها، إنها من زوجة ابنها إسماعيل، صفاء، كانت تتصل لتطمئن على صحة أفراح كعادتها، لكن صدمتها الأم بخبر مقتل فتحي وحبس أفراح على ذمة القضية، لم تفكر صفاء في شيء إلا أن أغلقت الهاتف وأخذت أول طائرة وجاءت إلى مصر لكي تنقذ أجمل شيء في حياة أجمل رجل عرفته في حياتها.

على الجانب الآخر كانت أفراح تجلس بين أربعة جدران في غرفة منعزلة لا تعلم ما هو قادم ولا إلى أين سوف يأخذها المصير وما يخفي لها القدر، تطرح على نفسها التساؤلات وتبحث عن إجابات لها، لماذا وصلت إلى هذا المصير العسر؟ ما هو الجرم الذي ارتكبته لكي تعاقب هذا العقاب التي هي بصدده الآن؟ ما هو مصير بناتها الآن؟ وماذا سيحل بهم إن تم تنفيذ حكم الإعدام عليها؟ هل عفوية الأم هي السبب في الإلقاء بها داخل السجن؟ ملعونة تلك العادات والتقاليد التي ساقتني إلى تلك الأحداث! ليتني لم أقبل بتلك الزيجة! ليتني لم أخش غضب أمي منذ البداية! ليتني لم أرضخ إلى أوامرها لكي أرضيها! إنها الآن على أعتاب الموت، وماذا

سوف يحدث لي الآن، لقد تحملت ما لم يتحمله بشر، أنا مجرد أنثى بريئة تم فض غشاء بكارتها على تلك الملاءة كرهاً وعنوة، تزوجت من رجل كان يعاملني كهؤلاء الساقطات اللاتي يجلبهن إلى فراشي ليضاجعهن حتى يشبع رغبته ليس إلا، آه يا وجع! أقسم بأن موته راحة للجميع وللمجتمع ذاته، إنه قاتل ووجب أن يقتل بلا رحمة، هل يحاسبني القانون بتهمة قتل ذلك القاتل؟ أين كان هذا القانون وهو يقتل الأبرياء بتلك المواد المخدرة؟ أين كان هذا القانون وهو يقتل الفقراء وهو يبيع لهم الأجهزة الكهربائية والمنزلية بضعف ثمنها؟ أين كان هذا القانون وهو يجلب هؤلاء الساقطات ليضاجعهن مقابل حفنة من الأموال؟ أيها القانون الأعمى الذي لا يرى الحقيقة الكاملة لأنه ينظر إليها عبر الأوراق والمستندات فقط؟ لا تسأل السارق لماذا سرق بل اسأل ما هو الدافع الرئيسي خلف تلك السرقة، فربما كان يسرق قوت يومه من فتات لص كبير سرق أموال الفقراء وتركهم جياعاً لا يملكون قوت يومهم، اسمعني أيها القانون الأعمى، قبل أن تقوم قيامة هذه الأمة نظراً لغياب العدل فيها، لماذا تحاكم العاهرة بتهمة ممارسة الرذيلة والفجور ولم تحاكم ذلك العاهر الفاجر الذي اشترى جسدها بأمواله لكي يقضي معها بعض الوقت الممتع ليشبع رغبته الجنسية فقط، لا تسألها لماذا تتاجر بجسدها بل اسألها ما هو الدافع للاتجار بجسدها مقابل حفنة من المال الذي يمتلكه ذلك الرخيص، أيها القانون الأعمى الأجوف، هل تسمعني؟ لماذا تحاكم ذلك الصبي الذي يتناول مخدر الحشيش لكي يفرج عن همه ووجعه ويغيب ولو لبعض اللحظات عن ذلك الواقع المرير الذي

يعيشه في تلك الحياة غير العادلة بالمرة، وتترك ذلك الرخيص الذي يتاجر بأرواح هؤلاء الأبرياء لكي يكنز الأموال ويكون الثروات على جثثهم؟!

عفوًا أيها القانون الأعمى، إن ثبت أنني قتلت زوجي فدعني أخبرك أنه لشرف لي أن أقتله، سيدي القاضي، إن المجني عليه ارتكب كل الموبقات والمحرمات وأنا من اقتص لهؤلاء الأبرياء جميعاً منه، ووجب عليكم أن تمنحوني شهادة تقدير نظراً لما قدمته في خدمة هذا المجتمع.

في صباح اليوم التالي كانت صفاء قد حضرت إلى القاهرة بصحبة محامي العائلة، ومن ثم توجهوا مباشرة إلى مقر احتجاز أفراح ليقوموا بكافة الإجراءات القانونية التي تكفل للمحامي أن يدافع عن أفراح في تلك القضية، لأننا في الحقيقة لو تركنا الأمر لأفراح كي تدافع عن نفسها كما خيل لها سوف يحكم عليها بالإعدام من أول جلسة.

كانت النيابة تتعاون مع أهل أفراح ومحاميها، سهلت كافة الإجراءات الواجب اتخاذها من أجل توكيل محامي العائلة الذي جلبته صفاء معها لكي يدافع عن فلذة كبد إسماعيل، وحينما جلست صفاء مع أفراح بداخل تلك الغرفة، نظرت لها أفراح في حالة صمت شديد تتأمل ملامح أخيها في وجه ابنه الذي حضر ليقف بجوار عمته، وكانت أول ما نطقت به أفراح إلى صفاء كلمة غير متوقعة بالمرة:

– ما زلت أنت وحدك يا أخي من يدعمني ويساندني في كافة أمور حياتي حتى بعد مماتك، رحمة الله عليك يا إسماعيل!

سيرة ذاتية

د. هند فاروق المنياوي

- شاعرة، روائية، وسيناريست.
- رئيس مجلس إدارة مركز المستشارة للتدريب وتنظيم كافة دورات التنمية البشرية وبرامج التأهيل والتطوير.
- عضو اتحاد كُتاب مصر.
- عضو رابطة الأدب الحديث.

المؤهلات العلمية:

- دكتوراه في فلسفه الأدب العربي المعاصر.
- ماجستير في فنون كتابة الرواية.
- ماجستير تواصل اجتماعي.
- ماجستير في التحكيم الإعلامي الدولي.

- دبلومة في استراتيجيات التفكير الابتكاري وبرامج تنمية الإبداع.
- دبلومة في الدراسات الإعلامية الدبلوماسية.
- دبلومة في تنمية المهارات وتطوير الذات.
- دبلومة في ثقافة التخاطب والبرامج اللغوية والسمعية والذهنية.
- دبلومة في التحكيم الدولي للفنون الأدبية.

التكريم الأدبي:

- حاصلة على الدكتوراه الفخرية في التنمية الذاتية وتطوير المهارات من الجامعة الدولية الأمريكية.
- حاصلة على الدكتوراه الفخرية في برامج الكورت للتفكير من ديبونو الشرق الأوسط.
- حاصلة على الدكتوراه الفخرية في الإرشاد الأسري والبرمجة اللغوية العصبية لكافة الأعمار وللجنسين من الجامعة الدولية الأمريكية.
- درع التفوق والإنجاز العلمي من الجامعة الدولية الأمريكية.

الخبرات العلمية:

- خبير مُعتمَد في برامج الكورت من ديبونو الشرق الأوسط.
- خبير مُعتمَد من المركز العالمي للبرمجة اللغوية العصبية.

- خبير استراتيجي للتنمية البشرية من أكاديمية جون هيفر البريطانية.
- خبير مُعتمَد للتدريب والاستشارات الأسرية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية من الجامعة الدولية الأمريكية. مُمارس مُعتمَد لليوجا والكريستال لعلاج الطاقات البشرية والعقلية من الجامعة الدولية الأمريكية.
- مُمارس ومعالِج مُعتمَد للعلاج بالتنويم الإيحائي لكافة الأعمار من المركز الكندي.

الأعمال الأدبية المؤلَّفة المطبوعة:

1 - مشاعر مرهفة، ديوان، إصدار أول 2008 م.
2 - القلب العاري، رواية، إصدار أول 2009 م.
3 - الحب المحرم، رواية، إصدار أول 2010م.
4 - حكاية ثورة، رواية، إصدار أول 2011م.
5 - هس هس ولا كلمة، إصدار أول 2012م.
مجموعة قصصية للأطفال تُحول اللغة المقروءة إلى مدلول إشاري للصُّم والبُكم.
6 - المرأة الحلم، ديوان، إصدار أول 2013م.
7 - أحلام بلا فارس، رواية، إصدار أول 2014 م.
8 - صُناع التاريخ، رواية، إصدار أول 2014م.

الأعمال العلمية المؤلَّفة المطبوعة:

1 – البناء التصويري والمفهوم والرمز والحداثة في الأدب العربي المعاصر، رسالة دكتوراه.
2 – ترويض الأفكار، إنعاش الطاقة العقلية.
3 – الجسد ، أسرار السيطرة على الذات.
4 – قياس الذكاء، برنامج جودة فكرية.
5 – نحو التحرر والانطلاق، برامج تأهيل.

أعمال أدبية تحت الطبع:

– غير نفسك وكُن الرابح.. تنمية مهارات.
– طُرق السعادة الزوجية.. استشارات زوجية.
– شمس.. رواية.
– ليالٍ حمراء.. رواية.
– مذكرات زوجة عاشقة .. رواية.

المحتوى

- الفصل الأول 3
- الفصل الثاني 21
- الفصل الثالث 39
- الفصل الرابع 53
- الفصل الخامس 67
- الفصل السادس 83
- الفصل السابع 97
- الفصل الثامن 111
- الفصل التاسع 115
- الفصل العاشر 123
- الفصل الحادي العاشر 153
- الفصل الثاني العاشر 147
- الفصل الثالث العاشر 159

أوراق للنشر والتوزيع

awraaq@live.com